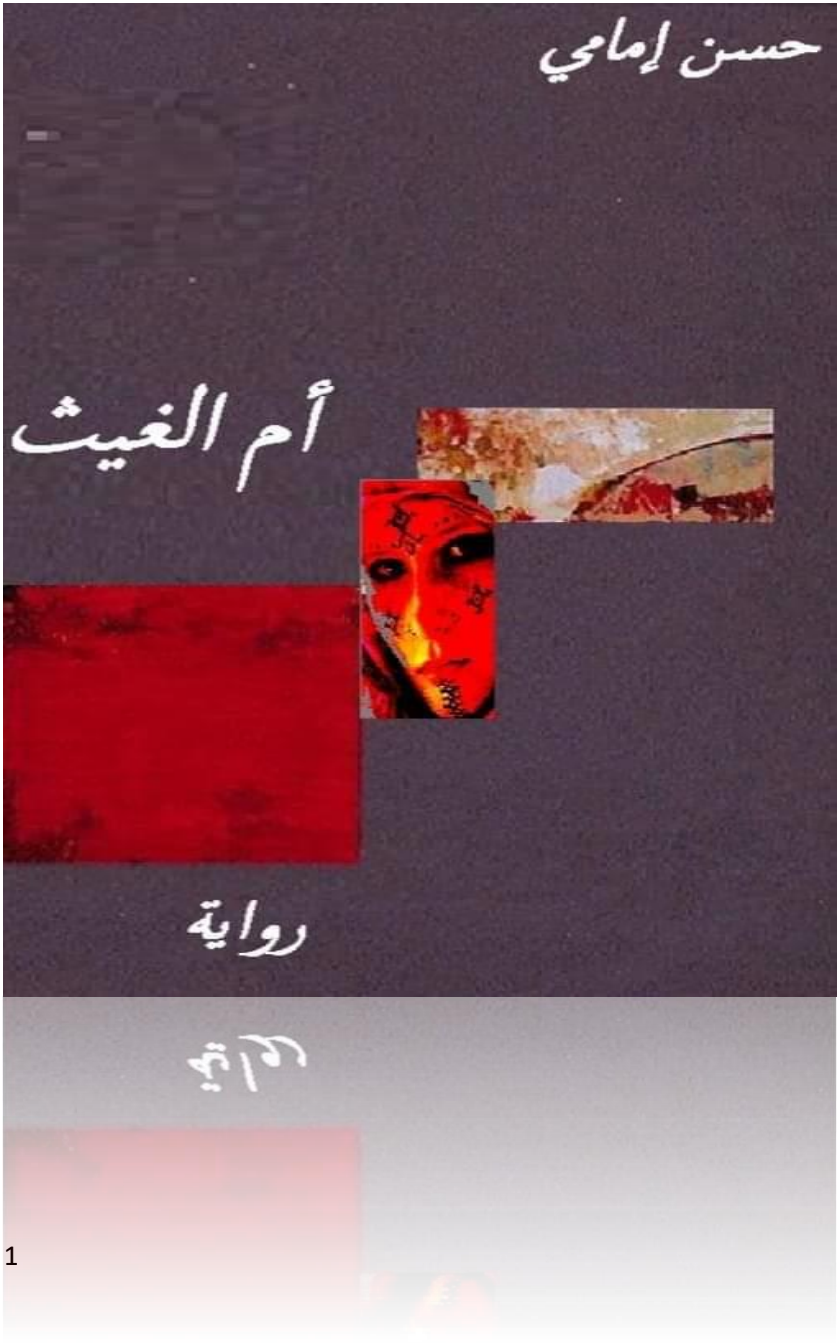
حسن إمامي
أم الغيث
رواية

قد تسكن أرواح الشخصيات كل كاتبٍ أو متلقٍّ، لكنها جميعها تشكّل هذا الإنسان !

(حسن إمامي)

أم الغيث

فتحت عينيها مع همس صوت آت من بعيد. في حنين أمومة نادت عليها داخل حلْمٍ اشتاقت لأنسه لها في وحدتها الجديدة. افتقدت ذلك الحضن وتلك الرائحة. كلما تباعد الزمن الفاصل بين ذلك العناق المشيمي وهذه اللحظة الجارحة، امتدت آلام سحيقة ترمي بها إلى قاع بئر شكلته لها صور أفلام الرعب بأفاعيه وهياكله العظمية وظلمته الحالكة.

لكن هذا الصوت الجديد لحْظيا، لم يكن مبحوحا ولا مجروحا ولا مليئا بشظايا الحرمان من اشتياق. كان صوتا مطمئنا بلحظة سعادة وأشعة شمس دافئة وهدايا صباح تفتح عُلبَها كلما فكّرت وتمنّت الحصول عليها قبل إسدال رموش عينيها ليلا.

غيتة. يناديها زوجها المولع بالاسم: أم الغيث. اسم فرح وأمل وإنقاذ. اسم رحمة نازلة من السماء. هي المطر الغزير الذي يجلب الخير. هي النصر والإعانة. هو فرحها كذلك باسمها الشخصي. كلّما ضاقت بها أحوال الدنيا والنفس، نادت في دواخلها باسمها حيث لا تسمعها

سوى خلاياها وشجرة أنفاسها. حيث كون الذهن يردد معها متراقصا هذه الحروف في نطقها الصحيح: غيث وليس غيتة.

لا يهمها ما سجله دفتر الحالة المدنية. المهم هو هذا الافتخار وهذه النشوة وهذا التسّلح بأجمل أسماء العالم: غيث، Guita، Rita ، وأشكال النداء تردد عبر تضاريس جغرافيا العالم في الوهاد والسفوح والوديان كما في القمم والرياح العابرة بالسحاب. يكفي أن الناس تدعو في بلدها بالغيث فتقول: أغثنا، أغثنا يا لطيف... يكفيها فخرا أن اللغة اللاتينية تجعله طهارة في المعنى، وأن الشعب الفرنسي يحتفل بهذا الاسم يوم 22 ماي، أنه ـ وهذا هو الأجمل ـ في العشق البوذي: هو الطاقة التي تحافظ على توازن النظام في الكون. ويكفيها احتفالا في رقصة البحر الأبيض المتوسط انتشار اسمها عبر ربوع بلدانه أو جلها.

تتسلل من سريرها تاركة أثر غيثها عطرا ساحرا يذهب بضحيته في غيبوبة مرجوة للثمالة والعشق والوله. انتهت معركة الأمس. كانت صاخبة بمقدماتها وطقوسها المعتادة. ختمت مشاهدها بقبلة السحابة النازلة من السماء بعد عاصفة متعة فوق عنق زوجها معلنة بذلك الانتصار المتبادل وذروة الفرح المنهك للأنفاس في لهث.

لم تكن لتُقَصّر في حبه ومبادلته المشاعر الفياضة والدالة على طهارة فرحها بحضوره ومعاشرته... هي الآتية من جبال الأطلس المتوسط، أرض فواكه الجنة وحورياتها. أرض الطهارة والسعادة والسلام. هكذا غنى أجدادها وآباؤها، أمهاتها وجداتها. هكذا راقصت الصغير والكبير، والذكر والأنثى، في" أحيدوس"•، وفي تعلمها الأول والمستمر الذي لا ينتهي مع رقصة الفرح والتحليق.

• - **أحيدوس** هو أحد فنون الغناء الجماعي الاستعراضي الأمازيغي بالمغرب.

غيتة. أستاذة مادة الاجتماعيات الآن. تدرس التاريخ والجغرافيا، ومن خلالهما ترسم خارطة الحياة المنسية والمقصية لثقافتها وأمتها. تعشق مادة تدريسها لدرجة جنونية. تجد فيها تعويضا عن عبث السياسة وممارساتها. تحاول تنزيل الحقائق بدون زيادة ولا نقصان. تجعل من أقواس الاستفهام دعوة لرحلة وسفر جميلين، بصفاء نية طفلة صغيرة، تعلم أن العلم سينتصر لقلبها العاشق للبراءة والعدالة والكرامة.

هذه الكلمة الأخيرة لم تفقد فيها أملاً، كما لم تنوِ في معالجتها إقصاء. أنا أمازيغية، أطلسية، شلحة. هكذا تجعل صوتها مبحوحا ومتغنجا في نطقها. ويبدو أن عالم صوتها يختزن أسرار شعورها وحقيقة عواطفها. من يستطيع ملامسة وتره والعزف على إنشاده، يستطيع أن يؤدي أغنية الحياة بوقع نبضات قلبها ومحرك أنفاسها وصدرها.

غيتة، الطبيعة المشتعلة بهاء بخضرتها وعيون مائها الجارية، وأمطارها وزخاتها اليومية التي تجدد سقاية الجداول وملء الفرشات وغسل أوراق الشجر من بلوط وأرز وصنوبر... غيتة التي يصبح بغيثها الكون ثريا للاحتفال بعد جولة مناخية ماطرة.

هكذا تشكّل وعيها ومزج بين الثقافة والطبيعة والتعلم. أرادت أن تكون سفيرة لهذه المكونات الثلاثة في رحلة زواجها بعبدالسلام، أستاذ مادة الطبيعيات بالسلك الأول إعدادي.

عائلة بسيطة. تمتلك من رأسمال الطبيعة أغنى شيء وهو الحب للحياة وتحدي الصعوبات المناخية والتضاريسية. مجتمع غيتة الذي يمتلك هو الآخر بطاقات تعريف شفهية تحفظها عن ظهر قلب، هو ذلك القطيع المزركش الألوان والأحجام والأنواع. ماعز وغنم وأربعة كلاب للحراسة كما للعب. كونها الطبيعي والفيزيائي الذي ستعرّفه بلغة الدراسة والتعلم فيما بعد بأنه هو هذا الامتداد الغابوي الشاسع والذي تبدو لا حدوده في خيالها، هذه البحيرة التي تجذب الجميع لكي تكون محور الالتقاء وتقاسم رغبات وآمال العيش والحياة. "ضاية إفراح"، مملكة الماء التي تغمر عيني غيتة بالابتسامة والحب رغم تغير الظروف المناخية وغزو البرد القارس والثلج الزاحف على فضاءات لعبها ومهامها وأدوارها الأسرية اليومية.

هي الطفلة التي زاوجت بين جمع الحطب واستراق يومي الأيام المشمسة لملاقاة السياح الذين يؤمّون البحيرة والمنطقة. تجيب جميع اللغات بابتساماتها المحمرّة الخدّين. تلوّح بصفحتي كفّيها دفعة واحدة داخل

جسدها المتحرك فرحا وفضولا. تهرول أو قد تسرع الخطو جريا سالكة مرتفعاتٍ محيطة بالضاية ـ البحيرة، منفلتة داخل أجمة غابها كأنها لعبتها السحرية في إخفاء صورتها عن مشهد الناظرين الذين قد يكتفون بالتلويح من بعيد ب(باي باي) متكررة أو بمدّها بحلويات مشتهاة أو غيرها...

هكذا ترتسم الذكريات عند غيتة، هذا الاسم المنفلت من لغتها الأم. وكم تهكّم عليها ومنه جل من لاعبها طفولة أو حاورها ثقافة ولغة. (غيتة)! نبرة التعجب تلتصق بالشفاه وبتدلّي السفلية منها وجحوظ العينين ببريق أبيض تحت كل حاجب أو داخل دائرة غطاء جلباب أو طربوش لعين يغطي الرؤوس من كل ريح خريق في الشتاء.

تسأل غيتة أمها عن معنى غيتة، من أين جاء هذا الاسم؟ لماذا تنكمش وجوهٌ حين سماعه؟

تبتسم لها حاضنة لذراعها، ساهمة بنظرها في جلسة غروب ضوء النهار واحمرار الأفق فوق القمم المحيطة بالبحيرة، وتبدأ في حكي هادئ يكون مثل سباحة في نهر وديع لا تريد له ارتجاجا يخلطه بتراب أو زوبعة قاع:

(ميلادك كان فجرا. كان الليل بدرا، وكانت أصوات الغابة تردد صراخي حين ندائي عليك لكي تخرجي لهذه الدنيا. عوت الذئاب ونبحت الكلاب، وأرسلت خلائق

الجبال نداءها في زقزقة طيور بالكاد لملمت أجنحتها استعدادا ليومها الجديد، وفي صراخ القرود الحارسة للأشجار والمتربصة بشاطئ البحيرة المستدير. حتى الأسماك نطت فوق الماء فاختلط صوتها مع بطّ أزعجه هذا الاستيقاظ الباكر وهذه المناداة عليك من طرف الجميع:

ـ هيّا اخرجي. اتركي أمك تستريح من حملك ! لا تخافي، ستحملك في ظهرها وسترضعك من ثديها، وستضمّك في حضنها. دفؤها من دفئك. أنت جزء منها أيتها الأميرة الجديدة. ستستحمّين في البحيرة وتركضين في شواطئها وتحلّقين مع عصافيرها.

ـ وهل خرجتُ لهذا النداء؟

ـ أين أنت الآن؟ ألست بجانبي أمام صفحتي الماء والسماء؟ لكن اعلمي بأنك رفضت الخروج. تألمتُ كثيرا. رجوتك. كانت عائلة تصطاف بجانب البحيرة. رجاهم أبوك في تقديم المساعدة. كنا وحيدين داخل بيتنا الصغير. قطيعنا مستكين في زريبته. من حسن حظك أن المرأة كانت طبيبة. ساعدتني على الولادة. أهدتك ما عندها حينها. عاودت زيارتك في كل فرصة سنحت لها. نادتْك منذ ولادتك بأم الغيث. استعصت العبارة على لساني. استفهمتْ وفهمتْ عسر نطقي وعدم قدرتي على الكلام بعد مخاض عسير في الولادة. كان بريق عينيّ

يجيبها ابتسامة وفرحا. سارعت لاختصار النداء وكان سهلا في الترديد حتى من طرفي:

ـ غيتا، غيتة.

حرفان ممتدان كافيان لمداعبة جسدك الطري في لفافة القطن الرطبة التي جعلتها من غطاء حملَتْه من سيارتها. قدر السماء كان في ذلك النداء. أنت غيتة التي سماها الله بك. هي السيدة حورية أمك الثانية التي لم تفارقك زيارة واحتضانا وإيواءً.

كلما جلست بجانب البحيرة رافق اسمك آفاقها، تمنى حينها شتاء دافئا وريحا حنونا مهداجة مثلما تحن الناقة على ولدها. يوم وُلدتِ كانت السماء بهذا الدفء وهذا الحنان، رغم أن الخلائق استرقت صراخي في المخاض وأشفقت على حالي كما تضامنت معي في ذلك. تخيّلتُها وقد أتت لمباركة طلعتك ذلك الصباح. كلما أطل محلّق أو دابٌّ أو أرسل مصوّتٌ، قلتُ هي مباركةُ مجيئك لهذه الحياة.

كم تخيّلت أسماءً واقترحتُها لك إن جئتِ أنثى. وكم حضّرتُ من أسماء للمولود الذكر. كنتِ عندي بأسماء الشجر والسماء والزهور والماء... ولأنني أحب الماء وأعشقه جريانا وأرسل مع البحيرة وصاياي لأعماقها ومسالك انفلات صبيبها منه، كنت أريد لك اسما، بل سمّيْتُك به قبل ولادتك (تالا)، لكن تسمية غيتة حينما

شرحتْها لي الطبيبة ضيفة المخيم، أعجبتْني في نطقها ومعناها. أنت أصل الحياة وأنت الرحمة التي تنقذ بعد جفاف وأنت من تدفئ المسام بدل ريح جافة أو قحط وييباب. ببركة الطبيبة تيسرت ولادتك فجعلنا ليمنها فألا فيما نادتك به رجاء: غيتة، يا أم الغيث!

كانت السيدة حورية طبيبة بمدينة إيموزار. سليلة أسرة من مدينة وزان من الوسط الشمالي بالمغرب. تلقت تعليمها في الطب بالديار الفرنسية. هي خريجة كلية الطب بتولوز. وقد شكّلت دراستُها لسنين عديدة بالمهجر شخصية جديدة لها. عاشقة للجبال والتجوال في الغابات. تنتهز جل الفرص للتخييم بجانب البحيرات أو في أماكن الاصطياف المتوفّرة بالجبال الأطلسية.

يوم تزوجت بالسيد عبدالعزيز الفارسي، وهو الآخر طبيب بيطري بمدينة إيموزار، وجدت معه مبتغاها في غريب عشقها للغاب. السيد عبدالعزيز يعشق صيد السمك ويضرب له موعدا مع القمر كلما اكتمل بدرا في السماء. ينتظر أيام التشريق، وقد يخرج في منتصف الليل من المنزل راجيا السيدة حورية لمرافقته من أجل

أن يقف أمام بحيرة تعكس الصفحة اللجينية للقمر، هذا الساحر الصامت الهادئ المطل من السماء.

يجد نفسه وقد دخل في حوار وجودي معه. تتأمّله حورية وقد انعكس بريق الماء المتموج برفق مع ضياء القمر على استدارة وجهها فيعطيها صورة ملاك صغير مبتسم للحظة رائعة في الامتلاك كشعور وكنشوة. يقبّلها في التقاء ظلين وشبحين يخترقان سكون كل حركة ليلية على ضفاف الماء:

ـ ألا نستحق الآن انصهارا حقيقيا يفترشه سرير أحلامنا بعد سعادة هذا الارتواء؟

ـ وأكثر.

ـ ما هو الأكثر؟ يسألها مستفزا بوحها أكثر.

ـ أحبّك أكثر فأكثر!

ـ أستسلمُ لحبّكِ أكثر وأكبر.

يمتلك الزوجان فيلا جميلة بمدينة إيموزار كندر. على مدخل الطريق الآتية من مدينة إفران، تنتصب أشجار سامقة تجمع بين رمادي شفاف واخضرار متموج مع الريح عاكس للمعان بصَمَتْ به قطرات الماء حضورها وعشقها للأرض والنبات والحياة، تظهر بوابة الفيلا بمدخلها وأبوابها ونوافذها. الحديقة وقد أخذت مسافة

ومساحة محيطة بالمبنى، تزخر بهندسة جميلة هي الأخرى. قد تنتظر الورود خلالها ذهاب قر الشتاء وهطول المطر لكي تبرعم وتورق زهرها وتعانق بعطرها مستقبلات الجمال والعشق. وبين مصاف الفيلات، تتميز فيلا الزوجين بلون جدارها الأمامي الأحمر الشفاف. ومع انعكاس أشعة أو شحوب السماء بغيوم ما، يتدرّج بين الفاتح والداكن فيُحيّر الناظر لتسميته المنفلتة من كل احمرار عادي. لوحة رخامية تشد المار بجانب المدخل الرئيسي: "فيلاّ ازكاغ"•. هي حياة الجبل وقد جعلت منها السيدة حورية جنتها الدنيوية.

• ـ ازكاغ كلمة أمازيغية تعني اللون الأحمر.

بحيرة إفراح، تستقبل الطيور المهاجرة كما تحتوي على أصناف عديدة من الأسماك، وتعرف حركة سياحية متزايدة مع حلول فصل الربيع. من ينظر إلى ضفافها يلاحظ وجود أراضٍ زراعية ممتدة مع المنحدر، تحدها من أعلى بدايات شجر الغاب. لكن واقع الحياة بالنسبة للبشر مخالف لهذا المنظر الطبيعي الجميل وهذا السحر الذي يجعلها محارا يتغلف بالأرض والسماء ويكون لؤلؤه هذه الخلائق التي تعيش في تفاعل حياة معها.

أسرة غيتة يتماس ـ كما تُجمع أسرتها على ندائها بها ـ تعيش في جوف أشجار منتجة وقليلةٍ تفترش ممرا فاصلا بين كتلتين غابويتين. وكأن الغابة لأهلها، وكأن هذا العراء للساكنة المقيمة منذ عقود وعقود هنا. في مفترق طرق قريب من ضاية إفراح، وبعيد في الاتجاه عن ضاية أخرى هي ضاية حشلاف، تقيم أسرة غيتة معتمدة على زراعة معاشية استطاعت جعلها في خطوط صغيرة سمحت بها حدود الغابة الزاحفة على المجال، بعيدا عن الأراضي الكبيرة التي انتصبت مبتلعة لجوف المياه وثدي هذه البحيرة الذي لا ينضب من ماء.

يظهر سطح المنزل أو الكوخ بالوصف الموضوعي وقد لمعت صفائحه القصديرية مع انعكاس أشعة الشمس فوقه. جدران قصيرة تكاد تلتصق بالأرض الحاملة لوقفتها، تجعل الفضاء الداخلي للغرفتين ومدخلهما الذي يتخذ مطبخا ومستودعا لمستلزمات شتى مغلقا وضيقا، يساعد على حسن توزيع التدفئة المتاحة بالحطب المخزّن كل حين من أجل مقاومة البرد القارس الذي تتوعد به أيام كثيرة من السنة وليال طويلة في الشتاء. مدفأة تُشكل الدرع الذي يقاوم تساقط الثلوج وهجوم قرها على جبال الأطلس وعلى المعوزين فيها من خلائق.

و رغم ذلك، كان هذا الفضاء فضاء جنة وسعادة عند غيتة.

كان قدر غيتة جميلا رغم قساوة عيش أسرتها ومخاوف قدرها اليومية. كانت لها قلوب تحبها من خارج محيط بحيرتها. كانت السيدة حورية هي أمها الثانية التي تزورها كل حين، خصوصا مع قرب المسافة بين البحيرة ومدينة إيموزار كندر. وحتى إذا ما ذهبت الأسرة أو بعض أفرادها أحيانا، يوم السبت، إلى السوق الأسبوعي بإموزار كندر، كان لها أن تلتقي أو تزور تحت الطلب والإلحاح أسرة السيد عبدالعزيز الفارسي وزوجته السيدة حورية. كان التحدي في اختبار رأسمال العواطف وقيم الكرم والسخاء وطيبوبة القلوب.

لم تكن أسرة غيتة لتأتي بأيديها فارغة. قد تكون في خصاص لضروريات فتفكر في بيع منتوج رعوي أو زراعي من أجل اقتناء قنينة غاز أو مواد مختلفة، لكنها تؤْثِر تفضيل الطبيبين في العطاء. قد يعترض السيد عبدالعزيز وزوجته على ذلك، لكنهما لا يجدان بدًّا من قَبول ما أهدي لهما. وبالمقابل، وما لم يكن لا بيعا ولا شراء، كانت أسرة السيد الفارسي خير سند ودعم لأسرة غيتة. قامت العلاقة بينهما وتبادل الزيارات، وكانت غيتة عروستهما الصغيرة التي ستحتضنها السيدة حورية لكي تتابع دراستها بمدينة إيموزار كندر.

لم تكن أمها لتعترض على مثل هذا الاعتناء وهذا العرض السخي والإنساني، فقد شاهدت مصير أخت غيتة، (عيشة)، وكيف سُلِبت من طفولتها وأُخذت خادمة في مدينة فاس وهي بنت ست سنوات. لم تستفد من دراسة ولا من لعب صبا ولا من حنان مرحلة أمومي.

كانت السيدة حورية هي الأم الثانية ل(غيتة)، وكان القدر مبتسما لها منذ محاولتها الخروج لهذا العالم الأرضي والعيش فيه.

ينحدر السيد عبدالعزيز الفارسي من أسرة كبيرة بمدينة إيموزار كندر حيث يعتبر الانتماء القبلي إحدى الروابط التي تجب مراعاتها في الحياة اليومية والعلاقات الاجتماعية. درس بالعاصمة الرباط وبرع في تخصص الطب البيطري. هو مفخرة لأسرته وقبيلته، حتى إن البركة لا تكون إلا بين يديه في اعتقاد السكان، والنصيحة لا يطمئن لها بال إلا إذا صدرت من عنده.

تزامن مجيئه للعمل بمنطقة إيموزار كندر مع انطلاق حملات تلقيح واسعة شملت ماشية الرعاة الرحل عبر قمم وسفوح جبال الأطلس. كان حضوره ناجحا باعتبار لغته الأمازيغية التي يتقنها نطقا، وباعتبار انتمائه لقبيلة لها مكانتها وصَيْتها في كل حديث وكل سوق وكل رواية تاريخية. أما عائلته فرغم تجذرها الثقافي والإثني فإنها انصهرت في عقلية معاصرة ومدنية مواكبة للحياة الحديثة وتعلمها وتمدرسها.

جايَل أبوه، السي علي الفارسي أزكاغ، حضور المستعمر، كما استفاد من تعلم في اللغة الفرنسية وتكوين فلاحي أدمجه في اقتصاد جبلي واستثمار ناجح. زكت طموحه سهولةُ حصوله في مرحلة خروج المستعمر على مناطق زراعية خصبة وشاسعة تتوزّع بين إموزار وإفران، كذا في السفوح المنحدرة إلى مدينة فاس. تحوّل بعضها إلى ضيعات فلاحية تضم شجر التفاح والخوخ في البداية. وستعرف مع السيد عبدالعزيز زرع أشجار فواكه جديدة انتشرت بسرعة وكان الطلب عليها في داخل المغرب كما في خارجه.

رغم هذا اليسر الذي وجد فيه السيد عبدالعزيز، فقد رفض التفرغ لفلاحة أبيه واختار العمل المستقل إلى جانبه. اختار طبعا ما يراه طموحا لشخصيته في كسب قيمة اجتماعية وقبلية مضافة، وفي تطوير كفاءاته المهنية البيطرية، كذلك بالتفكير في الارتباط والزواج من خارج دائرة الاجتماع المحلية. وهو أمر عرفه جل أفراد أسرته. أمه من أسرة مقيمة بمدينة فاس ومتلقية لتربية مدينية، أثّرت في توجهاته ورغبته في استقلالية اختيار وحياة. حتى من سكناه فقد اختارها في اتجاه طريق إفران بمسافة تبعد بكيلومترين تقريبا عن سكنى العائلة التي توجد فوق ربوة مطلة على امتداد سهول ومنحدرات عين الشفا وضيعات

المنطقة ومنها ضيعة السي علي (ضيعة إيدفوين) أو ضيعة التفاح كما باللغة العربية.

و هو العاشق لصيد الأسماك، المشّاء والمولع بالقمر في اكتمال بدره والسهر تحت ضيائه، تميّز عن جل طباع أبيه، لكنه انسجم مع المشاريع الكبرى التي رسمتها العائلة، عائلة الفارسي أزكاغ.

ستكون غيتة محظوظة باحتضان أسرة السيد عبدالعزيز لها. ستتلقى تعليما جيدا بالمدينة كما ستتفاعل مع ثقافتها الأمازيغية بشكل كبير جدا يجعل من مناقشاتها انتصارا لها ومرافعات مدافعة عن حضورها ومحاربة أشكال إقصائها وتهميشها التاريخي والمرحلي.

هكذا ستصبح السيدة غيتة فيما بعد حين تخرجها أستاذة في مادة الاجتماعيات. اعتبرت نفسها تنسج خريطة جديدة لثقافتها وانتمائها الأمازيغي، تبعث فيها الحياة حتى يكون التاريخ روحها وتكون الجغرافيا رئتيها التي تتنفس بها. ربما تبوح لقريباتها وصديقاتها بكون السيد عبدالعزيز الفارسي هو أبوها الروحي والثقافي، هو الذي فتح عينيها وبصرها على رؤية جبال الأطلس أرواحا ناطقة في كل

بحيرة وكل قمة وكل غابة ونبات وشجرة وحيوان قبل الإنسان.

اهتمت بتجميع المفردات والمقارنة بين اللهجات. تتبعت آثار الرموز والوشم الغنية وعلاقتها بالجسد والثقافة والحياة الاجتماعية والجنسية... حفرت ونقشت على جسدها في مرحلة لاحقة ما يشكل ذلك الانتماء الهوياتي وذلك الاحتفاء المتعطش لأشكال الثقافة والاحتفال والسعادة الهارمونية داخل الحياة الأمازيغية التي تبرعمت داخلها، رغم أنه وشم بطعم الجراح وآلام الشجون الطافية كل حين.

بين أبويها الطبيعيين، واللذين وهباها حب الحياة والماء والجري قبضًا على أزهار السعادة في كل ظل وكل حمَل وكل نبتة، وأبوين ثقافيين وجّهاها في أهم مراحل حياتها وأنقذاها من فقر واحتمال عدم تمدرس ومن كل تهديد بتشغيل عبودي منذ صغرها، كانت غيتة حامدة القدر ومنطلقة للحياة بمبادلتها الحب والسخاء اللذين ينسجمان مع فلسفة الحياة الأمازيغية الطبيعية والجميلة.

لم يكن حظ أختها عيشة بقدر حظها. ربما لامتها الأخريات في البداية على حرمان نفسها من فرصة الزواج المبكر.

جلّهن تبحثن عن فرصة تناسب ربيعهن الخامس عشر على الأكثر في ريعان عنفوانهن. الشجرة إذا لم تثمر حين نضجها تضيع لب الحياة ونسمتها وذوقها. هكذا تفكّرن. لكنها غيتة يتماس، والاسم يرفض عملية الفصل، يرسم الهوية والانتماء. ربما هي يتماس من نعترف بها. قد تناديها إحداهن بيتماس، لكن غيتة أو أمها تصححان جاحظتي العينين: غيتة يتماس.

قاوم الاسم في مرحلة من حياتها من أجل إثبات وجوده وحضوره. رسّخ بذلك تعلقه وحبه لصاحبته ولكل من ارتبط به وجودا ونطقا وعناية. كان جواز السفر الذي أنقذ غيتة يتماس من فقر مستمر أو زواج مغتصب لطفولتها أو استعباد لها في تشغيل مذل لكرامة الإنسان فبالأحرى لطفل صغير.

حينما تعود الأستاذة غيتة للحكي عن طفولتها، يشعر السامع بأن حلقة ذهبية من عقد الروح قد انفلتت من سلستها فما عادت مرتبطة ولا منتظمة ولا مطيعة في الانبساط على جيدها الذي خلا من كل حلّي يزين جسد امرأة جميلة.

رغم دخولها العقد الرابع من عمرها، ورغم آثار الزمن الذي أنجبت فيه وضحّت فيه في علاقة زوجية استمرت لعشر سنوات، ما تزال نضرة كلوحة تحتاج إلى تشذيب فقط. لكن الصوت فاضح للشخصية. تحاور صديقتها

وترافع عن نفسها في تجربة زواج لم تحمل معها منها سوى آلام وحسرات ندم.

كل محاولات الأستاذة صفاء، رفيقتها في المؤسسة التعليمية، لم تنفع في اقتلاع ورم كبُرَ ساحقا لأحشائها. ولا حينما تجلس بين أفراد العاملين والعاملات في المؤسسة أو في رحلة أستاذات أو نزهة أو حفلة ثقافية بمناسبة أو بغيرها. تشعر بالانقباض وبانكماش حركة أو صوت كأنها متهمة بجرم لم ترتكبه. كأن تهديدا يلاحقها وتحمله معها في ظلها. ملاذها لإخماد نار مستوحشة في التهامها بلسان لهيبها يكون هو الشعر، الكتابة الشعرية. المرافعة اللاجئة لمقاربة بلاغية تحتويها قصيدة النثر. ذلك التحليل الذي يصرّ على محاكمة التحكم الرجالي الأبيسي في المرأة عموما. كل الرجال ظالمون، مكبوتون، دون مستوى تشريف المرأة ومعاملتها حضاريا وأخلاقيا.

تتساءل غيتة يتماس مع نفسها كيف تستطيع أن تجعل الشعر مُرُوج ورد للسباحة العطرة بدل أن يكون حمم بركان تحرقها؟ ليتها استطاعت إلى ذلك جوابا فبالأحرى سبيلا.

ذلك لجوؤها في البحث عن سلّم اعتراف إبداعي، ربما هو معراجها الذي ترقى به فيخلصها من جهنم أرضية ويسمو

بها فراشة أو ملاكا تنعم بدفء سحابة تعترشها فوق الخلائق وبعيدا عن خلائق. لكنها لا تجد لفصل الأرض عن السماء حلا. فلا يمكن فصل الجسد عن الروح رغم أن هذه الأخيرة أصبحت ملوثة، وهي لا تريد أن تعترف بتلوّثها. لا أحد منا يصرّح بتلوث روحه. وهل يستطيع؟ ستترك السؤال للمجهول وللسراب الذي لا يعد إلا بالسراب.

يكون الدمع محبوسا. وكأنه ييبس وجفّ لعقود أو قرون على جانب مقلتيها. امتنع عن الجريان رفضا للاستسلام والخضوع والفضح بضعفِ موقفٍ أو اعترافٍ بانتصار وقوة للآخر، وحيث لم يعد هذا الآخر فردا ولا جماعة. أصبح موضوعا، قضية إشكالية.

تحكي لصديقتها التي رأت في حضنها خلاصا لقنابل تكاد تنفجر في صدرها. وقد تتساءل في دواخلها بعض الأحيان:

ما الذي يجعلها ترتاح لصديقتها صفاء؟ أهو كونها أستاذة لمادة الفلسفة أو لكونها اختبرت كتابة الشعر وحضور ملتقياته والانخراط في مهرجاناته؟ أهو كون خطابها ينبني على معطيات التحليل النفسي وتفسير الوضعيات بمصطلحات وتركيبات علم النفس وكأنها الطبيبة المعالجة سريريا في عيادة؟

قد يكون البوح بالسر وبالمكنون، والتصريح صراحة وحقيقة بالشعور الداخلي الدفين، منطلقات للخلاص من معاناة وتعقيدات جهّلت الفهم وعقّدت الشعور وعرقلت السلوك... ذلك ما تشعر به حدسا. ذلك ما يدفعها لاشعوريا لكي تبوح لصفاء، وكأن الاسم جاذب للخلاص فيكون الصفاء بحضور صفاء.

ـ عزيزتي صفاء، أعتذر إذا كنت دائما أُفرّغ ثقل همومي على مسامعك ومعك. لكنني أرتاح لك أكثر. أرى في عينيك ذلك النهر الصافي الذي يطّهرني بالسباحة فيه. طهارتي تكون بالسباحة بالكلام وبالنظر إليك. طهارتي بمرأى ابتسامتك واهتمامك الصادق بكلامي وقضايا حياتي. لو تعلمين بماذا تذكرني به هذه الجلسة معك أمام "صهريج السواني" بمدينة عملِنا وتدريسنا مكناس الآن؟ هذا المكان المرتفع والمطل على الصهريج. هذه السماء التي حجبت شمس المغيب وتركت للنهار متسعا لكي ينعم فيه المرء بضوء بدون لهيب. أتذكر أمي وطفولتي التي قضيت سنواتي الست الأولى معها بشكل مستمر. فصل ربيع وهي ما تزال مسلّحة بجوارب سوداء وكسوة طويلة تغطيها حتى كعبيها، نصفها الفوقي بنفسجي والتحتي أسود كذلك. فولارها المنفلت عن مدار ستر شعرها. ربما تكون المرأة قد استعملت غطاء الرأس لتجمع به خصلات شعرها من الانفلات فوق الطعام أو الشراب الذي تحضّره.

تجيبها الأستاذة صفاء، مستحضرة طابع الفكاهة والترويح عن النفس في الخطاب:

ـ ربما أن خصلات شعر حينما تصبح "مشعككة" شعثاء، تثير جنون الرجال في النوم والعناق.

تستطيع صفاء أن تنتزع منها ابتسامة وضحكة سرعان ما تنفلت منها لكي تعود لسجن ملامح كدرة تكبّلُها دواخلها بها. لكنها تستمر في مقاومتها بما استطاع العقل والاجتماع مساعدتها به:

ـ تعلمين، أستريح لشم نوع العطر الذي تضعينه يا صفاء. حتى ألوان لباسك التي تختارينها منسجمة وراقية.

ـ لا تبالغي عزيزتي. لو أردت اختيار ألوان لاستطعت ذلك أفضل مني. أنت تمتلكين ذوق عيش ورغبة حياة أفضل منا. لكنك لا تريدين. تبحثين عن بساطة وربما تهملين نفسك في كل ذلك. ربما أنك تهتمين بابنك العزيز وتهملين أمّه. هذه الحالات كثيرة في المجتمع.

ـ كيف ذلك؟

ـ اسمعي آ لالّة غيتة. حينما يكون الولد مثل وردة والأم مثل ساقها الصلب والشائك الذي يحميها ويسقيها. هل هذا التشبيه مناسب؟

ـ وهل مادة الفلسفة عندكم دائما تشبيه وبلاغة؟

ـ أنت الآن أفضل محللة فلسفية للفلسفة. ليت الجميع يفهم سر تفسير الحياة والحقيقة مثلك يا غيتة.

يلامس طائر متوسط الحجم سطحَ الماء بمخالبه. يستطيع أن يلفت نظر مجموعة من زائري هذا الحوض المائي المستطيل. تتراءى ل(غيتة) يد طفل ملوّحة وعيناه خاطفتان للنظر بين مشهد الطائر وحركته وأمه التي تقف بجانبه وراء السياج الحديدي المحيط. فرحة التقاط ابتسامته تفتح في دواخلها حنينا طفوليا يربط الكلام بالحكي وبالذاكرة:

ـ كنت في سن الخامسة تقريبا فيما أتذكّره الآن وفيما ذكّرتْني به أمي في مناسبات بعد ذلك. رأس أشعث وكسوة تحمل معها مخلفات يوم من الجري والمشاكسة للتراب والماعز والشجر والماء... لا أرتاح إلا بعد جهد جري ولعب وذهاب وإياب مسافة بين كوخنا الذي هو منزلنا وضفاف البحيرة ضاية إفراح. كنت حافية القدمين أريح صندالي من مهامه الصعبة ومن بلل ماء الضاية، واقفة ومتكئة على صخر كبير نجعله سندا وسطحا لنشر بعض الثياب أو زربية أو حايك خضع لتصبين أو تشميس... ولك أن تتخيّلي هذه الفارسة الجالسة أمامك وهي في هذه الوضعية...

تتعالى ضحكاتهما فتثير بعض المارة وتزعج استراحة عصفور اضطر للوقوف بجانبهما ثم الانطلاق بعيدا عن

وتيرة صوتيهما. وتتابع غيتة الحكي وسط هدوء استقبال صفاء له، هذه التي تعلم مفاتيح الولوج إلى نفسية غيتة واحتضان بوحها ورسالته:

ـ سأحكي لك حكاية القبيلة والضاية، وأرجو ألاّ تغفوَ عيناك هنا، أوكي؟

ـ أنا معك. كلّي آذان صاغية. إذا غفوت أو نمت فأنت صدر حنون سيرعاني ويغطيني بدفء ناعم.

ـ وأنا؟ سأبقى مثل نخلة تفيّئك بظلها؟ ألن أحتاج أنا الأخرى إلى دفء وغطاء مع اقتراب هذا المساء؟ ههه... لا عليك. لك ذلك، ما دمت ستنامين إلى جانبي في هذا الخلاء. إنما لا أضمن لك ما يمكن أن يقع مع إسدال الليل لستاره !

ـ هّا ! وما الذي يمكن أن يقع؟

ـ لقد أوقعت بي في شراك الكلام. لكنني لن أجيبك عن السؤال. سأستمر في الحكي:

القبيلة:

آيت سغروشن. يحكى أن جد القبيلة أو شيخها كان ورعا تقيا عابدا وداعيا إلى الله قانتا. كان راعي غنم ومؤمنا

برعاية الله ومطمئنا لقضائه وقدره. في يوم من الأيام وهو في صلاته في أرض الله الواسعة، وقطيعه يقتات من عشب الأراضي المخضر بجوار الغابة الممتدة، خرج الذئب من أجمة هذه الغابة وأراد اقتناص فرصة الصلاة لكي يفترس شاة ما، تيبّس الذئب وأصبح حجرة صماء، وكانت المعجزة والكرامة (سْغْر) تعني جفّ ويبس، وأوشن تعني الذئب.

ـ وهل لقب القبيلة باسم الذئب أم باسم جدها؟

ـ هه... في الحقيقة ملاحظة مهمة تحتاج إلى دراسة وتحليل أنثروبولوجي عميق. لكن بالنسبة للجد، فالكل تحدث عن الانحدار من حفيد لإدريس الثاني والأسرة الإدريسية التي تتشرفين أنت بالانتماء إليها يا صفاء.

ـ في الحقيقة لا أفهم. كيف تكونين أمازيغية شلحة وإدريسية؟ بالنسبة لنا كأسرة شبيهية مكناسية فإننا نرتبط بشجرة تجعلنا من أحفاد الإدريسيين. لم نلتحق بالأسر التي ذهبت في عهد المولى إسماعيل إلى جبل زرهون. أما أن تكوني أنت من شجرة الأدارسة فإنني أحتاج إلى فهم ذلك !

ـ طيب يا صفاء. لا تستغربي من الحكاية. حينما تكلّمت عن بركة هذا الجد السغروشني الذي صنع بكرامته المعجزة في أن يُصيّر الذئب حجرة جامدة حتى تكتمل صلاته، فإنني أتحدث عن امتداد تاريخي لقبيلة أصبحت اتحادية وحتى لغتها أصبحت مركبة بين لهجات متعددة.

لم أكن لأثير الموضوع في مناقشتنا لولا القراءة التاريخية المتكررة التي تتبعتها ووجدتها محكية شفهيا عند الناس. السغروشنيون شرفاء من ذرية علي بن عمرو من أهل القرن السادس الهجري والذي قيل إنه دفن بغزوان وقيل ببني تيجيت حتى اشتهر بصاحب القبرين.

ـ أي سوريالية هذه يا غيتة؟ تكلمينني بالعقل أم بالأسطورة؟

ـ إقامة أكثر من ضريح لشخص واحد وبالخصوص للأولياء أمر مشهور في المغرب. لا تستغربي، نحن في ذاكرة التاريخ نختزن الحكاية سواء كانت منطقية أو أسطورية وخرافية. لكنه كما تعلمين ستتضمن عناصر للحقيقة مشتتة في ثناياها... ترقد حتى تأتي لحظات توظيفها الموضوعي. حينها يمكننا وضع الاستنتاج الذي يناسب.

ههه... ها أنت في مصيدة التاريخ. نعم قبران يا صفاء. مثلا يكون له قبر في المكان المدفون فيه، وآخر في مكان عبادته. هذا يفسر بأن الذين جاؤوا بعده قد أرادوا تخليد حضوره وأثره حتى يتمسكوا بسيرته أو بركته. ولكِ أن تفسريها حينئذ كيف تشائين. هناك مثلا سيدي المعطي بن الصالح دفين أبي الجعد له أكثر من ضريح، الأول في آيت عتاب (تزروالت) والثاني أولاد لحسن في (تسقي) والثالث

ب(حوش في آيت حساين)... أزيدك أم كفاك تخمة اغترابية؟

ـ إيه، أنت فعلا حكاية غريبة. لا أدري هل بحيرة ضاية إفراح هي التي سقتك كل هذا أم ماذا؟ ذكرتني بمثل هذا الأمر. الآن فقط أستطيع طرح التساؤل. في زيارتي لمدينة أزمور مع زوجي في بداية زواجنا، لاحظت وجود علامة مؤدية إلى ضريح بتسمية سيدي علي بن حمدوش. فعلا استغربت حينها وتساءلت بل علّقتُ فقط دون أن أتساءل: نحن كذلك بضواحي مكناس عندنا ضريح سيدي علي بن حمدوش. والله العظيم المسألة غريبة. كيف لعقلي ألا يستنتج ما يفهمه الآن؟ شكرا لغاليتي لالة غيتة الإدريسية.

ـ هه. رجعت لالة غيتة. أنا آ لالة صفاء غير غيتة يتماس. بنت فقيرة من جبال الأطلس شردتها الثقافة وتاريخ المجتمع.

ـ النهار اقترب من أفوله. ما رأيك لو دعوتك لوجبة أكل بماكدونالد؟

ـ وهل تريدين زيادة سمنة على هذه التي بدأت بانتفاخ البطن والأمعاء؟ أنا شلحة لا يجعلني أستلذ طعاما غير شواء لحم. اجعليها دعوة لمطعم شواء قريب، يكون أفضل.

ـ حاضر آ لالة غيتة، يا أم الغيث.

في الطريق إلى المطعم، بينما اتخذت الأستاذة صفاء في سياقتها لسيارتها الاقتصادية الجديدة مسلك طريق القصر الملكي المؤدية إلى مفترق طرق بين طريق باب بوعمايز وطريق مدينة الحاجب وحي الزيتون، عبّرت غيتة يتماس عن انشراحها. شعرت بأنها منذ مدة لم تتكلم بهذه الطريقة البعيدة عن استحضار معاناة زواجها وطلاقها الذي ما يزال يجترح نفسيتها. استطاعت صفاء أن تحوّل الموضوع لتسألها من جديد عمّا بدآه. كانت هي السائقة، وهي صاحبة السيارة، وهي المتحكمّة في الكلام والحوار.

استملحت غيتة تغييرها للموضوع، وعلّقت من جديد مداعبة بالكلام:

ـ حاضر آ مول المظل". ههه... شهوة صاحب المظل، يمشي في الشمس أو في الظل.

ـ والله العظيم إنك أكبر امرأة مليئة بالحياة والدعابة. أنت أكثرنا امتلاكا لطاقة حياة وسعادة. أغبطك حبيبتي. قولي لي. .

ـ نعم آ مول المظل !

تنطلق ضحكاتهما من جديد ولا يحدّ صداها سوى زجاج نوافذ السيارة المغلق، بينما ينطلق الضغط على الكلاكسون بفعل ارتداد يدي صفاء مع مقود السيارة في ضحك

هستيري. الحمد لله أن الطريق أمامهما لا تسبقهما فيها سيارة، وإلا لأَثَارَتا غضب سائق ما.

تنظم غيتة الإيقاع: آ مول المظلْ، سِرْ في الشمس أو في الظلْ... تسترسل اللازمة غناء ثنائيا يخرجهما من كل حاضر ومن كل هموم في آنيته.

يستريحان من هذيانهما قبل الالتحاق بمطعم على الجانب الأيمن من مخرج المدينة المؤدي إلى مدينة الحاجب. تأخذهما المرايا في استعادة مقامات الحسن الأنثوي. تتبادلان تزكية تعديل الماكياج واللباس في تسويته ووضعيته. حين الجلوس حول طاولة في زاوية من المطعم تسألها صفاء في هدوء تام وجدّية ملامح:

ـ لم تحدثيني عن دمع البحيرة بعد. كلّمتني عن التسمية للقبيلة فقط.

ـ سأستجمع الحكاية ولكن قبل ذلك سأذهب لغسل يديّ في جناح النظافة بهذا المطعم.

تخترق غيتة ممرات الطاولات حتى تلج مكان حوض الغسل. تقابلها في الطريق صفحات أوجه وملامح. بعضها منشرح والآخر لا مبال. تثيرها نظرات شخص جالس بمفرده في زاوية من القاعة. تقلقها تموجات عينيه بين رؤية وجهها والنظر أسفل ردفيها وساقيها. بطرف عينها اليمنى وهي مبدية تلك اللامبالاة الضرورية للمرأة في

تجاوز مثل هذه المواقف التي توترها، خصوصا مع الرجال، تطفو من ذاكرتها وعلى سطح ذهنها ملامح زوجها السابق عبدالسلام. فجأة يتغير كل شيء في ملامحها ومحياها. شعرت بحرارة مزعجة تخترق شراييها وبدا ذلك النبض الذي يدق طبول القلق والأرق في ليالي معاناتها التي أدت بها إلى الانفصال المدمي لقلبها قبل جسدها عن من أرادت تربية ابنها وابنه هو كذلك: عثمان.

بينما كانت الأستاذة صفاء تنظر إلى قائمة الوجبات المعروضة في اللائحة عادت غيتة بعينين محمرّتين وجنبات وجه مبللة لم تجففها بعد. استعطفتها واستسمحتها في الانصراف ومغادرة هذا المكان. تعلم صفاء تقلبات صديقتها، لكنها لا تعلم عمقها ومثيرات تمظهرها. استجابت دون حكٍّ على الجرح. في الطريق ساد الصمت وأطبق، إلا ما كان من استشارة حول الوجهة التي ستكون. كان الدوار وألم الرأس هو المبرر الصحي الذي شفع لغيتة حتى توصلها إلى باب العمارة بحي أناسي. وغيتة تعلم بأن مدة هذا القلق تحتاج فيها إلى عزلة وصمت.

عبدالسلام الهدفي، ابن الشمال الشرقي. من عائلة منحدرة من الريف، لكنها تسكن بمدينة وجدة تبعا لتجارة الأب وضرورات الدراسة للأولاد كما التجارة طبعا. لم تسأله يومَ تقدّم لخطبتها وهي الملتحقة بمدينة وجدة للعمل في التدريس عن تفاصيل كثيرة. كما أنه لم يسألها عن أخرى قد يراها ضرورية كفهم أو كشروط. لم يستبينا أهميتها في تحقيق توازن علاقة إلا حين تورطهما في زواج لم يسترح له الطرفان، وكلٌّ يدّعي بأن الآخر هو المشكل وهو السبب. إنما من يعاني نتائجه أكثر؟ يبدو أن الأستاذة غيتة كانت هي الضحية فيه، كما ابنها عثمان.

في مساء ذلك اليوم الذي لم تكتمل حيوية انشراحه وسمره ومداعبات مرحه مع صديقتها، كان ضحية المناخ الرمادي الحزين هو عثمان ابن السيدة غيتة. تلقى الأوامر والتوجيهات لما يحتاجه خلال ذلك المساء. رتابة اليومي التي تُعوّد على المألوف فيصبح سهل الطلب والإنجاز.

تناول عثمان عشاءه، انسحب لغرفته وبقيت غيتة في جلسة الصالون غارقة في صفحة مَجلة كانت سفينتها التي تغرق معها في ظلام الذهن.

ما تحاول محاربته داخل ذاكرتها وتنفسها وشعورها هو مرحلة زواجها من عبدالسلام. يوم تقدم لخطبتها كان لقاء معها في مؤسسة عملها. رأته واقفا على جهة الرصيف المقابل. بدا مبتسما وأنيقا. عيناه ترقبانها بهدوء. تقدّم خطوات وسلّم عليها. استسمحها في رغبته في حديث خاص. نيته طيبة، يريد الزواج ويبحث عن الفتاة المناسبة له. عرّف بنفسه وصفته. استبشرت خيرا واستحسنت الصفة. في سنها الثامن والعشرين، كانت غيتة يتماس في ريعان أنثويتها واختيارات اللباس المناسبة والأنيقة والمواكبة للموضة. شعرها المنسدل يعكس وهج غابات الأطلس المتعطشة لهواء جديد ومتجدد. كأنه البحر المتموج في مدّ وبحث عن شواطئ ارتطام وجزر وهدوء مزبد. عيناها بإنارة مصابيح الموانئ التي طال انتظارها لعودة السفن ولقدوم المركب المنتظرِ حكاية وشوقا لغرائب حمولته وسحر عطوره وطلعة أسطورته في متخيل هذا العاشق الذي رسمه ذهنها وأثّثته ثقافتها وطموحاتها.

ها هي داخل عالمها الأنثوي وحب الحياة الذي وهبته إياها منابع الأطلس وبحيراته الساحرة تتطلع لهذا الفاتح الجديد والذي لم يكن سوى ابن بلدها المغرب وثقافتها الأمازيغية. ماذا تعرف عن شخصية الإنسان الريفي؟ معروفون بالجدية والصرامة، بصفاء المشاعر والنية وعدم النفاق أو المكر... شاورت أقاربها وصديقاتها. تكررت اللقاءات بينهما في جلسات مقهى أو مقاهي. توطد التعارف الذي بدا فيه عبدالسلام مستقيما وكريما. واكب مداعباتها بابتسامات وقبول واستحسان مع تدخلات مرحة استلطفتها غيتة. تحسّرت على فقدان أمها الثانية حورية "الشاهدي". ليتها كانت على قيد الحياة لكي تسعد بنجاح وتألق، والآن تزوُّج، من استقبلت صراخها في الولادة، ومن واكبت رعايتها وتربيتها خلال مراحل تعلّمها بمدينة إموزار كندر ومدينة فاس كذلك.

عبدالسلام الهدفي بلون بشرته الأبيض الجامد وصفحة وجه صخرية معظوظمة. عيناه بارقتان وأنفه رقيق وشفتاه مختومتان بدقة مناسبة لقسماته وحركات ابتسامته وكلامه. حتى من تسريحة شعره تعطيه تلك الشخصية المتوسطية التي تتميز بحسنها ومناسبة قامتها في الطول لكل فارس ممتط لجواد أو راقص على إيقاع فالز في فيلم سينمائي ما.

هكذا كانت النظرة المختطلة بالحلْم في المعانقة، وحين يرتبط هذا الحلْم بالزواج ترتقي معه الفكرة لكي يكون زواجا مناسبا بثقافته وأخلاقه وتحرره وتطلعات الحياة السعيدة داخله، ملؤها حنان وظاهرها سفر ومتعة عيش ومعانقة كل بلاد جديدة وكل قمر مكتمل في الشوق المتجدد والمرغوب. كيف سيحتضن جلبابه المقاوم للاستعمار طلعة ثوبها المزركش بألوان أحيدوس، هذا الفن الذي تعتبره سفير القيم الحسنة والمتحضرة في الحب والسلام ونبض الحياة؟

صغُرَت رؤاها فيما يخص باقي اقتراحات الزواج أو المتفكر فيه منها. أمها التي انتقلت للسكن في مدينة إيموزار كندر بعد وفاة أبيها والتي اكترت لها ولأختها عيشة منزلا، كانت تنتظر بالدعاء لها هذا اليوم الذي يماثل وقع الأساطير في الحدوث، لقيمته ولتمنّيه، أذرفت دمعها حين إخبارها. تمنت لو أن أباها كان حيا. رأت في ابنها علي خلَفَه الذي يجب إخباره وإحضاره للمناسبة. عليّ الذي التصقت أقدامه بتربة الجبل وأغصان أشجار الغاب وضفاف الضايات وجداول المياه ومنابعها، بقي في رعي الغنم بالأساس، مع زراعة موسمية قدرُها مرهون بسلامتها من دهس أو إتلاف، ما دام هو خارج دياره في رحلة المراعي والغناء للقمم والسفوح.

لم تُعِرْ غيتة انتباها ولم تعطِ قيمة لإشارات تلك الصرامة التي فرضها كشروط ومراسيم في الخطوبة كما في حفل الزواج. هي تؤمن بأن الهواء الجديد قدرُه أن يخترق كل النوافذ ويغير كل رطوبة أو جمود نتن فيه. كلنا بشر ناقصين ونحتاج للتغيير. وما دامت نيتنا حسنة فإن هذا التغيير سيكلل بالنجاح، خصوصا وأن عبدالسلام الهدفي أستاذ للعلوم ومنتمٍ لجيلٍ متعلّم وعصري. صحيح أنه توظف مباشرة من بعد تخرجه من المركز الجهوي لتكوين الأساتذة بعد نيله شهادة الباكلوريا وأنه لم يدرس بالجامعة بخلافها. لم ترَ مشكلة في ذلك. بالعكس رأت على أنه يحافظ على فطرة طهارته السلوكية والذهنية ما دام لم يُبْتَلَ بالأفكار التمردية التي يتعلمها الطلبة في الجامعة. ربما معارك الطلبة تجري بين مجرات سماوية بعيدة عن الواقع، وربما معارك عبدالسلام هي معارك من لم يلجوا الجامعة، بسيطة وتجري فوق الأرض وسهلة التعقب والحل والمعالجة.

هكذا كانت غيتة في تحليلها وتبريرها وقد أذابت تصلّب الحديد وصهرته قبل تشكله.

حضور عائلته كان ليلة كتابة عقد الزواج ورواحها في آن واحد. ملامح قاسية لا تبتسم إلا نادرا ولا تجيب إلا بقياس واقتصاد في الكلام. حرجٌ وقد بدا على ملامحه هو، حاول أن يتخطاه بإنجاح كل تواصل أو حوار بين طرفين أو

أكثر. وما همّها هي. ستتزوج الرجل وليس عائلته. إنما نسيَت أن النبت النضر تجلس جذوره بجنبه أو من تحته.

ما يؤرق غيتة أكثر هو ندمها على اللحظات الأولى من اللقاء. لماذا لم تكن منطقية ومشترطة ومستبينة الأمور. إنما مَن مِن الناس يستطيع أن يستعلم الغيب وما سيأتي من الأحداث بالتفاصيل والمفاجئ فيها؟

رغم عمومية الحكم لم ترضَ بهذا العجز في الاستبيان. يشكل لها عقدة في حاضرها وجلسة الصالون هذه والتي لم تكن بالفرد الوتر، بل النقطة فوق الألف: ليلة وحسرة وسهاد وأرق وألم وبكاء...

نعم. لقد أذرفت دموعها هذه الليلة في زاوية من الصالون بعيدة عن مسامع ابنها الذي انزوى في غرفته. سقت الوسادة التي احتضنت ذراعيها وخدها الأيمن. شجن وأنين يتحول إلى بكاء طفولي ومنشد. يستحضر الرغبة في احتضان الأم لها والتخفيف من حرمانها ومعاناتها. هذه الأم سماؤنا التي تلفّنا كلما لفظتنا الأرض، عُشّنا الذي يدفئنا كلما لفحتنا رياح باردة. حضننا الطبيعي الذي يأوينا بعيدا عن الغيلان الهائجة بلعاب ابتلاعها لنا كصبيان. مضامين استحضرها إنشادها بلغتها الأمازيغية الأم. ولن تبلسمها سوى لغتها الأمومية الأم.

ساد فضاء المنزل هدوء مريب. أطفأ عثمان حاسوبه ومصباح غرفته. بقي نور خافت يخترق هيكل باب الصالون. في زاوية، كان شبح جسد منطوٍ ومتكئ على وسادة مبللة يتأرجح عليها كروح منفصلة. بدأت قدماها في التثلج . قشعريرة أرسلها الدماغ كردة فعل على هذه الغربة المفاجئة في الانسلاخ عن الحياة. العينان غائرتان في ظلام النفس وطبقاتها المتكلسة. البركان يغلي ويصهر سُمْكها العميق. طفلة تبكي وقدماها منتفختان. جاعت لفرط لعب وتأخرت وجبة الأكل داخل الكوخ الذي آواها في طفولتها. الأم منشغلة برضيعها الصغير. الأب غائب منذ ستة أيام. لقد ذهب لتفقد القطيع الذي رحل مع شريكه لسفوح بعيدة عن الغابات والثلوج المجمدة للحياة. البياض هذا المعشوق المرعب الذي يسحر العين ويسحل الروح، كان بكاء الطفلة داخله مختلطا بكل هذا غريزة وحنينا وبردا وشكاية. على شاشة الذهن بقيت عينا الطفلة محملقتان في احمرار متقد في أنين الأستاذة الجالسة كجسد مجروح في انتظار بداية الاحتفال في افتراسه من طرف السباع ثم الضباع ثم النسور ثم النمل والديدان، وماذا بعد؟

كلها آلام اجترحت بها الذات في جوف الظلام فكانت حلكته فم غول يبتلع كل مُطلٍّ عليه ومستسلم لجاذبية غابه. صوت الهاتف المحمول يرن بلازمة أغنيتها المفضلة. لحن أغنية دخلك يا طير الوَروار لفيروز. كانت صديقتها

صفاء هي المتصلة قبل أن تسدل الستار عن يوم لم تكتمل احتفاليته بينهما هما الاثنتين. بالكاد اقتلعها الرنين المتردد والمتكرر من هذه الغيبوبة المغرقة في العدم والألم. بالكاد أجابتها بصوت جثة هامدة عادت للحياة فقط لكي تؤدّي واجب رد السلام والإجابة على المكالمة الهاتفية. كانت خيوط السؤال عن الحال وعن عثمان وعن ساعة الاستيقاظ غدا وساعة العمل صباحا، حُقَن الإنعاش التي ارتدّ معها بياض العدم الهانئ ورجعت معه ألوان الحياة المحيّرة بين رغبة ورقصة ألم داخلها.

منذ مدة لم تزرها ذكريات مرحلة الطفولة الأولى.

صحيح أن الطبيبة حورية اعتنت بها وزارتها وقدمت لها ألبسة وهدايا، مرة لها بمفردها ومرة كان حظ أفراد العائلة منها حاضرا. لكنها مرحلة ثقبت فرشة نفسيتها قبل أن تنموَ وتتبرعم وتلتحق بفضاء الحياة الداخلية داخل المؤسسات التعليمية.

مدينة إيموزار كانت جنتها التي أنقذتها من مصير مجهول لم ترغب فيه حتما. ربما كانت غيتة تقارن بين ما تقرؤه حول النار والجحيم والسعير والاحتراق في جهنم، وهي تردد آيات القرآن تلاوة وحفظا واستظهارا، وبين ما عانته وعايَنتْه بشقاوة طفولة من قساوة الثلج وبرودة الطقس ومن حكايات الموت المرافقة لهما. كم من حيوان مات بين طبقات الثلج وبقيت ندفُه نعشَه وغطاءَ قبره في انتظار

احتفالية الطير فوق رأسه. وكم من إنسان بُتِرت رجلاه أو جاء خبر موته. وكان المستضيف لرحلة وداعه ثلج أبيض (أدفال).

هذا الانصهار بين عناصر الهيولى الأولى النار والثلج، البرودة والسخونة، كانا في هيجان داخل محيط غيتة النفسي. يوم شاهدت برنامجا وثائقيا حول براكين جزر هاواي الملفوظة مع أمواج الشواطئ والمتشكّلة بألوان بهيجة، قالت غيتة في همس داخلي ومتنهد:

ـ هذه أنا !

كانت تلك دروسها المتراقصة في تراجيديا مع نفسيتها خصوصا بعد مرحلة الطلاق.

نظمت الأستاذات فيما بينهن نزهة لمدينة إفران. كن أربعة اخترن الغابة المنحدرة في اتجاه عين فيتل. رافعن لقضايا شجونهن وتفجير المشترك في معاناتهن النسوية الثقافية والاجتماعية. هكذا يكون الوصف معقلنا للأمور حتى لا يبقى مجرد تعبير بلاغي ينتصر للغة على حساب الذات المعبّرة. هكذا وصفت الأستاذة غيتة في بهاء حواراتهن وبوحهن. طلبن منها أن تنشد قصيدة أو قصائد. كانت حقيبتها اليدوية سجلّ مرافعاتها الوجودية والوجدانية. أخرجت رزمة أوراق مثنية. امرأة أهملت مظهرها وذلك الاهتمام بأناقتها ولباسها ومدى انسجامه مع هيأتها وتسريحة شعرها. امرأة جعلت شالا دائم الحجب لشعرها الذي فقد حرية انطلاقته مع رياح الحياة. ورغم ذلك تقاوم لكي تعيش لأجل هؤلاء الأحياء الذين يهتمون بها ويحاولون إسعادها ولأجل عامل صمودها في البقاء وسرّه: عثمان.

ارتعشت اليد اليمنى الممسكة بسجلّ البوح. انذبح الحلق الذي سيُغرد بهذه السطور. كادت دموعٌ أن تنفجر لولا ابتسامة جمّدتها في آخر لحظة تماسكت فيها قواها لكي تبدأ الصرخة الأولى والحرف الأول والقصيدة الأولى الملقاة في هذه النزهة. اختارت تلك التي سبق لها أن قرأتها في قاعة الأساتذة يوم احتفال المؤسسة بالثامن من مارس، اليوم العالمي للمرأة طبعا.

كانت الأستاذة صفاء قيدومتهن في المؤسسة. عملت بها لمدة أربع سنوات قبل أن تلتحق بها السيدة غيتة بعد طلاقها من زوجها. أما الأستاذتان الأخريتان فهما جديدتان بالثانوية.

لم تكن ثلاثهن حاضرات للإهانة التي تعرضت لها السيدة غيتة أمام الجمع من طرف زوجها السابق السيد عبدالسلام الهدفي بمدينة عملها الأولى وجدة. يوم قامت لإلقاء قصيدة في حفل بهيج بمناسبة اليوم العالمي للمرأة، وبمجرد ما بدأت في إلقاء أبياتها الأولى اقتحم زوجها قاعة الأساتذة بالمؤسسة التي أصبحت تجمعهما بعد أن التحقت به كزوجة وكرفيقة عمل، وقد أصبح حينها حارسا عاما بهذه المؤسسة. دخل صارخا ومزبدا، أمسك شعرها بمخالب أصابعه. جرّها كما تُجرّ البهيمة من وسط القطيع إعدادا لها لبيع أو ذبح. تحول العيد إلى مأتم واستنكر الكل ما

وقع، لكن قدسية رابط الزوجية شفع له في التبرير والتجاوز لما قام به.

لأجل هذه الذكرى الأليمة ستحتفل السيدة غيتة داخل أشجار إفران وهواء الحرية النقي بكلمتها وروحها. ستقرأ ما تيّسر من بوحها. تُرى من منهن على علم بكل هذه المعاناة وسياقها؟

كانت الابتسامة في رؤيتها له تحررية. قاست بها مسافة البوح والمرح. داعبت أنفاسه واختلجت أدغاله المنسية والموحشة. كانت مهَا تململ أعشاب ندية وتبرعم أزهارها قبل طلوع كل فجر جديد. أعجبها تصلّبه وتمنّعه. اعتبرتهما مفتاح التحدي الجميل للمرغوب الممنوع. (لابد من تحرير هذه الذات التي امتلكتني حبا وعشقا وامتلكتها). لا تعمل على تكسيره، بقدر ما تعمل على تطويع عصيّه في دواخله. لكنها نسيت المقولة المغربية: (الفقوسة يلا عواجت ما بقي لها ما تتسرح).

تندهش لانصياعه لرقصاتها وقرصها. كان في كل ذلك تلميذا نجيبا. كانت الأشهر الأولى بهذه الرومانسية التي ترجمت أحلامهما في البوح والجنس والعري الناعم بين جسدين. استطاعت خلالها أن تفجّر كل جمالها الأنثوي في ساحة معركته، فكانا المنهزمين والمنتصرين. ويا له من مَخرج للمعارك.

جاء الولد. وكأن مجيئه إعلانا لنهاية مرحلة وبداية أخرى. تحوّل السلوك من رومانسية ناعمة إلى توجيهية عسكرية. حتى من البطاقة البنكية الخاصة بها نزعت من يديها وهي ما تزال في نفاسها. أصبح سي عبدالسلام هو سي السيد كما عبّرت بذلك لصديقتها صفاء في لحظات تفريغها الدفين:

(ـ من اليوم فصاعدا، أنا أسيّر كل شيء. تكفيك رعاية الطفل.

حتى جلساتنا الغرامية أصبحت بالشكل التقليدي وبتحكمه في لحظات النشوة وانتهائها. لم تعد عبارات الحب حاضرة، ولا ابتسامات القُبْلة التي قد أوَقّعها على خده أو عنقه. وكأن فعلي تقنية آلية. حتى جيدي أصبح ممنوعا من حرية عريه داخل المنزل. أصبحت عيناه تراني عورة ربما. وكأنني أنجبت فلم أعد إلا آلة للرعاية وليس للاشتهاء...

المساعدة المالية الشهرية التي أرسلها لعائلتي، أصبحت تمر بين يديه ويتحكم فيها بطريقته. قد ينقص منها في بعثها. قد يؤخّرها عن موعدها. والأخطر في كل هذا هو هذه الإهانة لكرامتي كامرأة، كأستاذة. أرادني أن أكون خادمته وأَمَتَه. بدا تسلّطه حتى في أدائه لمهمته كحارس عام، في تشدده مع التلامذة، وفي صرامة كلامه مع الأساتذة. الأمرّ في كل ما تسمعين يا صفاء هو ذلك التنكيل بي كورق مرحاض للتنظيف فقط. لا أسمع إلا ألفاظا

تجرح وتقتل دواخلي كشجرة تعشق أكسجين الحياة والحب والفيح والرقص مع نسيم الهواء: قوّدي... سيري يا القحبة... ترّيكة القحاب... الشلحة الخانزة... !

تتحول عينا غيتة إلى جمرتين محمرّتين متفجرتين، كما صوتها إلى طائر مذبوح لا أنين له إلا الألم:

ـ أنا؟ كل هذا؟ ! أنا التي نظفت دواخله قبل مخارجه. عوّدته على فرشاة الأسنان، وعلى الناعم من الطعام، وعلى العطر المناسب للفصول ولحظات الليل والنهار. أنا التي سرّحتُ مسجونه وعقده في الكلام فأصبح لسانه مطواعا طليقا قادرا على محاورة النساء والرجال، بعدما كان مقدوره فقط هو أن يسهم نظرات غضب يُبدي معها جدية غامضة تخدع الناظر إليه، هذا الذي لا يعلم حقيقة عُقده وأحقاده. ممارسته للجنس كانت قذفا أعمى وقد أصبحت سمفونية أوثث نغماتها بحلو الكلام ومقدماته. أصعب ما يمكن تعديله في الرجال. رقصه لم يكن إلا حالة تفجير وانفعال. حتى تصفيقه لم يكن يوما منظما مع إيقاع الموسيقى، كان خبط عشواء، وقد رتّبتُه متناغما.

مواقفه كلها متهمة للناس بالدونية وعدم الاعتبار. كنتُ محاميتَه التي ترافع لأجل اندماجه الإنساني والطبيعي، وكان هو السجان والجلاد الهمجي الذي يعمل على سلخي من إنسانيتي وكرامتي وجعلي خادمته والحيوان المطيع الذي لن يرتاح إلا بنحري في نهاية المطاف.

لكنه استطاع ذلك فعلا. رماني في الشارع بجلابة وطفل. اتهمني بالخيانة. حتى من طفله تنكّر له. أصبحتُ لاجئة عند صديقتي. بدأت أُلَمْلِم جراحي لكي يستقيم جذعي من جديد، من أجل هذا البرعم الذي تفرع غصنا من شجرتي. كل ما استطعت أن أعتبره حقا منتزعا هو تربيتي لابني الذي يشرّفني أن أكون أمه.

يا لجراحي ! لا تندمل أبدا. رغم بوحي ورغم استقلاليتي المادية والحمد لله، ما زلت أنزف في دواخلي. وكأن صمغي يقتطع من عمري لكي يهبني للعدم وللموت.

أصبح شبحا يخترق نومي فيحول محاولات الحلم إلى كوابيس. ولم يكفِه كل هذا. ها أنا مطلقته ورغم ذلك يستمر التهديد والتعيير من طرفه).

ـ أي مريض سيكوباتي هذا !؟

كان ذلك سؤال واستغراب صديقتها الأستاذة صفاء. قد تكون الصداقة ذلك المنقذ من السقوط إلى الجحيم. كما قد تكون تلك المرآة التي تجعل الآخر يحمد حاله ويعلم قيمته داخل عُباب القدر الذي يتقاذف الناس في عواصف الحياة.

كان ذلك درس صفاء التي بقدر ما تحمّلت شكاوى وتوترات صديقتها الأستاذة غيتة، بقدر ما كانت مستفيدة من دروس حياة. جعلت جفونها مخضلة، لكنها علّمتها أن

الحظ نسبي وأن على الإنسان أن يقنع بما حظي به صحة ودراسة ووظيفة وزواجا وحياة.

كانت قامة غيتة تزيد طولا على نظيرتها عند صفاء. كانت غيتة نحيفة نسبيا بالنظر لطولها رغم هيكلها المعظوظم والسميك، وبالنظر كذلك إلى صفاء التي كانت بدينة ومربوعة تميل إلى القصر منه إلى الطول العادي. نظرة غيتة من أعلى كانت تشعر صفاء بعبوس صادر من ملامحها. لكنها ألفت طريقتها في الكلام المتباطئة والمائلة إلى لكنة أو لهجة أمازيغية أكثر. ملابس صفاء كانت تبدو أكثر مواكبة للموضة وللألوان الجديدة التي ملأ قاموسها ألسنة البائعين والمشترين دون إدراك لها كدرجات وكأوصاف. هكذا كانت صفاء قائدة غيتة في اختيار ألبستها خلال عملها وصداقتهما بمدينة مكناس.

لقد جعل اليومي منهما ثنائيا لا ينفصل إلا للضرورة التي يفرضها ما هو اجتماعي وتربوي ومهني. صفاء لم تنجب أطفالا بعد. وأم عثمان، وقد بلغ الأربع عشرة سنة في آخر احتفال بعيد ميلاده، تستطيع أن تفصل بين التزاماتها معه وبين أوقات خروجها وزياراتها لصديقاتها المعدودات على رؤوس الأصابع. جل علاقاتها بمدينة وجدة قد اختفت تواصلاتها. هي صفحة اسودّت في عينيها وأرادت أن تنساها بالكامل، رغم أن جل معارفها في العمل هناك قد تعاطف معها بل منهم من أراد أن يجعلها قضية حقوقية يرافع بها في المحاكم الشرعية والقضائية.

لماذا لم تستطع غيتة أن تذهب بعيدا في مقاضاة زوجها السابق عبدالسلام وهو الذي عنّفها مرات عديدة ماديا ورمزيا ومعنويا. احتقر أنوثتها وحطّ من كرامتها؟

سرّ الجواب يخفيه صوتها الرقيق الذي يكاد يذوب ويختفي في محاولتها الكلام حول هذا الموضوع. غيتة التي فقدت أمها ـ سندها في الوجود.

غيتة التي كتمت غيظ الواقع الذي جرف أختها عائشة إلى جحيم الاستغلال وهدر الكرامة الأولية في العيش. غيتة التي مات أبوها في صاعقة ثلجية بضربة برق فوجدوا جثته جامدة وقد بدأت كواسر الأطلس في الاستعداد لنتف جلدها. غيتة التي استغلها زوج كرقم تأجير وراتب وقروض بنكية لكي يبني منزلا مستقلا ويشتري سيارة جديدة فيصبح من الطبقة المتوسطة الأنيقة والتي تعيش في رفاهية وكمال. هذا الطائر الجريح، يمامة فقدت القدرة على التحليق. السماء زرقاء واسعة أمامها وفوقها وهي العاجزة حتى على الفرح مع الرياح. تجلس أمام أوراقها المسجلة لشجونها وآلامها. ديوان الجراح. هكذا تحب أن تسميّ مجموعة قصائدها دون أن تدوّنه كعنوان في صفحته الأولى. وكأنها ترفض الاعتراف ولو بحدّ الغرق الذي يذهب بأنفاسها.

إيموزار كندر:

مدينة الشلالات والمغارات. مدينة الضايات ومراكز الاصطياف الجميلة. لكن إيموزار كندر مدينة التاريخ المنسي كذلك والذي لا يعلمه جل الناس. قد يأتون

للاصطياف فلا يرون سوى جمال الطبيعة ورقرقة المياه، إنما حياة الناس والساكنة ولغة المدينة الحقيقية لا يفطنونها أو أنها شبح لا يبوح بكلامه لأي كان. فلن تبوح إيموزار للغريب عن قلبها بشجونها طبعا. حتى تاريخها سجلته الصراعات القبلية بين كروان وآيت سغروشن، وكذا اختيار المستعمر للمنطقة كفضاء للاصطياف وبوابة لمسالك الجبال الوعرة. جرأتها كمدينة على تعميق الهوة بين جحيم ونعيم.

ذلك قلب غيتة كذلك التي أصبحت تنتمي للمدينة أكثر من انتمائها للضاية التي احتضنت إشراقة حياتها وضياء روحها. غيتة التي ترى في واقع المدينة واقع أختها عيشة. جرح آخر استطاعت أن تتغلب عليه وتغيّره إلى ما هو أكرم.

كانت عيشة وما تزال أختها الكبرى التي ترسم أثر الكدح والفقر الذي تعانيه أسر الرعاة والجبال المنسية بالأطلس. ملامح الذكرى كانت ضعيفة بالنظر لذاكرة المرحومة أمها وذاكرة عيشة التي تبوح وتفجر ما وقع. الكرامة مجروحة وجوديا وتاريخيا واجتماعيا قبل أن يجرحها هذا الوغد الذي اقتحم حياة غيتة كفارس ثم سرعان ما تحوّل إلى وحش ينهش بالمخالب المتاحة في جسدها كما في روحها.

وجرح عيشة هو جرح المدينة. كانت غيتة ترسمهما حكاية لصديقتها صفاء حين زيارتهما لمدينة إموزار كندر خلال

فصل الصيف الذي تلا نزهة إفران السالفة الذكر. وكأن صفاء هي السجل المائي لهذا الحكي المرصوص بالبارود في روح غيتة. فعلا، لقد استطاعت صفاء أن تجعل في فؤادها متسعا من الطمأنينة لصوت غيتة ولثقتها وحبها المفقود في تجاربها السابقة. تجعل خطو الحكي إضافة دون الرجوع لما سبق في تفاصيله. تطمئنها بضحكاتها ونكاتها وغنائها ورغبتها في تعلّم أمازيغيتها التي تشتركان في الانتماء إلى مؤسس دولتها الإسلامية الأولى وجدّهما الأول المشترك فيها. لا تهمّهما الصراعات الإيديولوجية ولا التوترات الهوياتية التي تستفز البعض في حديث الثقافة. امرأتان تشقان طريق الصداقة والأخوة الثقافية تقعيدا وتجسيدا لمقولة (ربّ أخ لم تلده أمّك)، و(رب أختٍ لم تلِدها أمك) كذلك.

ها هما في ضيافة عيشة بمدينة إيموزار. صينية الشاي وصحن الحلويات واللوز. طبق التفاح والخوخ. قِرى أصيلة مغربية تفتتح بها ابتسامات الترحاب والاحتضان للضيوف ولعشق الاجتماع الإنساني المتجدد.

تبدو عيشة أكبر بنية وطولا من غيتة. كما أنها تعطي الانطباع بأنها أكثر تجربة في الحياة والصبر على الأحوال. تستغرب صفاء لرؤية وجه وضاء وعينين لامعتين في لونهما العسلي الجميل. شعر أحمر وقد انسدل من جانبي صدغيها. حاجبان يحافظان على بهاء مهَا واقفة

لاستقبال ريح الحياة التي تسافر بالنظر كما بالجسد في معانقة ربوع الجبال. لباس بسيط يساعدها على القيام بأشغال المنزل بسهولة، وحذاء بلاستيكي أسود لا يفارق رجليها بين بلل مياه الساقية الجارية بجوار المنزل ويبس مهامه البرية. وكأنها فرس تعدو بين السواقي ومسالك الغاب. هكذا تتكرر أشكال التشبيه ذهنيا عند صفاء وملامح الاندهاش لا تفارق ابتسامتها وفرحها بهذه الرحلة الجميلة التي قامت بها إلى مدينة إيموزار كندر رفقة زوجها في زيارة صديقتها غيتة وفي استضافة الثلاثة من طرف عيشة الوجه الآخر لمرارة الحياة وتجاربها. حتى عثمان رابع الجماعة في الزيارة الصيفية يعتبر نفسه وقد عاد لعالم يمتلكه ويهيم فيه. فلم يكن بالضيف ولا بالمتقيد ببرامج الكبار. .

كان هناك رجل مشهور بلقبه في مدينة إيموزار: (حدّو بويمجان). طول ونحافة وسرعة كلام وحركة. وسيط كل شيء وفضولي كل مجلس وشاهد كل اتفاق. يوم السوق عنده حركة غريبة وسريعة ومعارف متنوعة. ومن بين مهامه التي يبحث بها عن رزق ومدخول مالي كانت رحلته بين القرى والأسر الموزّعة بين الجبال. يشتري منتوجاتها بأبخس الأثمان ليعيد بيعها بما يناسب أرباحه

التي تشجعه على زيادة ثقة في تجارته الفريدة ووضعه داخلها.

كانت بعض الأسر من المدن المغربية ترغب في فتيات تتخذهن خادمات داخل بيوتها. وكانت مدينة فاس بحكم أرستقراطية عيش بعض أهلها مستقطبة لمثل هذه الخدمات والخادمات. بين (سيدي) و(لالة) تكون الخادمة ميسِّرة ومقرِّبة ورسولة وتحت الإمرة. لكن السن الذي يكون مطلوبا لا يحده عمر ولا تردعه طفولة بريئة وغير قادرة على الخدمات فبالأحرى الابتعاد عن حضن الأم وأمان الأسرة وذلك الاستئصال المشيمي الذي يجتث الفؤاد ويكشطه بدمع جامد غير مرئي. ذلك شعور وحكي عيشة عن تجربتها. فقد حكت للأستاذة صفاء بعضا منه، وما لم تستطع حكيَه كانت الأستاذة غيتة قد لمّحت به في حواراتها معها.

لنتصور قدرا ماليا بمائتي درهم في سنة 1974، كيف كانت أجرة العامل والموظف آنذاك قبل أن تتحول ظروف المعيشة عند جل المغاربة بعد المسيرة الخضراء والتحاق الأقاليم الجنوبية بأرض الوطن الأم وبعد بداية الصراع العسكري بين جارتين حول المصالح الإستراتيجية والإقليمية.

لم تكن عيشة هي أول فتاة تعرف مصيرها كخادمة. سبقتها أخريات. كانت بعض الأسر ترى في ذلك حلا يساعد على

تدبير شؤون الحياة القاسية بين هذه الجبال الوعرة وتهديدات المرض والموت والجوع...

لم تكن عيشة لتنجوَ من قدرٍ رسمه المجتمع عرفا وقانونا وثقافة. أخذها حدو بويمجان يوم السوق الأسبوعي إلى مدينة إيموزار. سلّمها أمام أبيها لأسرة فاسية تمارس التجارة. بكت عيشة تحت ظل طأطأتها وهي ترافق الأسرة الجديدة. اختلطت عليها مشاعر الحزن مع مشاعر الفرح الطفولي. لأول مرة سترى مدينة كبيرة ومنبسطة. بل أكثر من ذلك، مدينة بأسوار وشوارع وتجارة ولغة غريبة على أمازيغيتها.

كان حي البطحاء هو عالمها الجديد. وكانت أسرة (بنجدي) حاضنتها، كما كانت الخادمة (طامو) معلّمتها ومؤطّرتها في المهام الجديدة. تجربة غريبة ستعيشها عيشة في عالم كبار ومدينة أسوار وأسرار. لكن الأمر سيستمر في سقي جراحها أكثر.

مائتا درهم !

أوراق معدودة أبهرت الأب والأم. اعتبراها عربونا سيستمر في النزول من السماء. كانت آخر مرة يحلمان فيها بمثل هذا القدر من المال. يوم يلتقيان بحدو بويمجان، فرادى أو هما الاثنان، يتلقيان وعودا بأمان وبأن عيشة تتلقى صنعة وتعلما لم تكن لتحلم بهما لو بقيت بين الجبال المنسية. قد يجود عليهما بورقتي عشرة دراهم. قد يُنبّه إلى كونهما من عطائه وجوده، وأنه مجرد فاعل خير فحسب. إنما سيطمئن على أحوال عيشة حينما سيزور مدينة فاس.

حسِب الوالدان أن اختيارَ وضع ابنتهما في حضن أسرة فاسية سيجعل لها حظوظا تنقذها من ظروف عيش جحيمية. قد لا يعلم أحدٌ جراح الفقدان إلا الأبوان#. الخوف على الأولاد من المرض والبرد وتهديدات الحياة الجبلية القاسية. يتشبثان بالحياة وبالأمل.

قبيلة متماسكة في الانتماء لكنها مشتتة كنيازك منثورة إلى صدفة مسار الفضاء، فماذا لو خمدت أحجارا صامتة؟

كل عائلة صغيرة تخترق الحياة بجهدها ومغامراتها. كم من أخ وأخت فقدتهما أم عيشة؟ بحسب علمها، ثلاثة قبل

ولادتها، ومع ولادة غيتة كادت الأم أن تزهق روحها من أجل أن تخرج هذه الروح الجديدة إلى قدر يتوعد أكثر مما يعد لولا لطف الله ومساعدة الطبيبة حورية. بعد غيتة كان أخا آخر قد ازداد، لكنه فارق الحياة بعد شهرين من ولادته في فصل شتاء قارس وثلوج جمّدت كل حركة ثوب فبالأحرى حركة الإنسان. انطفأت نار المدفأة الحديدية للكوخ الصغير في غفلة من نوم الجميع. كان لون المولود الجديد قد أصبح أزرق وكان الفاه مفتوحا للبوح وما هي إلا فتحة إزهاق الروح. الالتحاق بالسماء. وكان قدر الأم دمعة ووعدا بإعادة إنجاب كأنها مقاومة للموت ومتحدية لرهان يعد بالفناء والعدم. لقد أصبحت النظرة غريبة إلى هذه السماء، خصوصا مع فجر كل يوم جديد. أي جديد ستفاجئهما به؟

اعتبرا عيشة محظوظة بهذه الرعاية الجديدة. يوم زاراها بحي البطحاء، انبهرا للرياض الذي يحتضنها. ذلك المنزل الفسيح الذي يأخذ هندسة جنة نعيم لا يسمعان صورتها إلا في حكايات الفقيه الذي يتجول للتبرك بين القبائل أو ذاك الذي يلقي خطبته بلغتين، عربية وأمازيغية يوم الجمعة أو العيد، إذا حضراها مصادفة وتزامنا مع يوم السوق الأسبوعي.

تلك الغرف الطويلة والفسيحة والمزخرفة بخشب يزين سقوفها بأحسن الأشكال، أو تلك الألوان البهيجة التي

تفترشها الحيطان بزليجها المرمري اللامع، أو تلك الأقواس التي تنفتح لها أبواب خشبية ضخمة كأنها أبواب قلاع لا تعِد إلا بالأمان. والماء الذي يترقرق من السقاية المزلجة والذي ينبع بدهشة مشاهدتهما من هذه النافورة التي تتربع مستديرة كباقة مرمرية بيضاء بحبوحة المنزل. وهذه الأشجار المتنوعة التي تعد بها الجنة. ها هي موفرة داخل بستان هذا الرياض. شجرة رمان وتوت وكرم تين وزيتون وليمون وبرتقال وورود وأزهار... ياه ! بقي الفاه مفتوحا.

ولا هذا الاستقبال وحلاوة اللسان وطلعة عيشة بصندل يحمل لونا أصفر جميلا وفاتحا، وسبينية وردية بأهذاب مرصعة لامعة، ووجه وضاء قمري الإشعاع بعيد عن كل لفحات البرد وورقته التي يرسمها على جلد المخلوقات غير الوبرية. عيشة التي صقلتها سنون الطفولة فاستقامت كقضيب خيزران مكتمل القوام والرشاقة والحركة.

ـ مرحبا بسيدي صالح ولالة يطو.

هكذا كان جد العائلة وأبوها الكبير يرحب بهما وهو في جلسته تحت سقيفة المنتزه. أمامه صينية شاي معدة بأوانيها وكؤوسها، بموادها من حبوب شاي وسكر ونعناع وشيبة وبتلات أزهار بيضاء ووردية مجففة. كلٌّ في أطباق مغطاة، يكتشفها المنبهر بجمال الجلسة كل حين فيتابع وظائفها وما تعد به.

كانت فرحة عيشة برؤية أبويها كبيرة، لكن ألفة الطفلة وقد بلغت تسع سنوات آنذاك، وقدرية الاستسلام في براءتها لما سيقرره الكبار، جعلاها تسعد باللحظة وتعيشها بفطريتها أكثر. ربما تلوم بشجونها المتحشرجة في اللاوعي قدر الغياب والتغييب. ربما ستحاكم الجميع الحاضر أمامها على مسارها ومصيرها وأشكال الحرمان التي هي فيها. لكن كل هذا مؤجل من أجل لحظة فرح تشبه لحظة اللعب الطفولي الذي لا تغتنم منه عيشة في حياتها اليومية إلا ما استطاعت نزعه في غفلة من الطلبات والخدمات.

كانت اللغة حاجزا. الأم يطو لا تعرف من اللغة العربية إلا مفاتيحها. الأب ستخونه اللهجة الفاسية ومعها قاموس المدينة والأشياء والثقافة داخلها. عيشة التي اختصرت جملها في ما بقي في ذاكرتها ولوازم تواصلها الأول والقديم قبل ثلاث سنوات. لم يشف أحدهم فؤاده من حرمان التواصل ولا من مكنون المشاعر التي لم تجد إخراجا لها بشكل واضح وتعبير فصيح.

يومها ذهبا بورقة خمسين درهما وأمام أعين حدو بويمجان الذي لم يفارقهما حضورا وتنقلا ومترجما

لأطراف الحوار بمقصّه ورقابته. كان فرحهما برؤية ابنتهما سالمة معافاة كفرح اطمئنانهما على ابن في أدغال جبال مع معز أو غنم وعواء ذئاب جائعة تتوعد من فوق رؤوس قمم مقابلة، مرت لحظات الرعب وهدأت العاصفة واحتضنت الأم طفلها واطمأن الأب على قطيعه وابنه في آن.

منذ تلك الزيارة انقطع حبل الاتصال مع عيشة. هي في جنة البطحاء ورياضها. كلما شرح لهما الفقيه صور الجنة في سورة الرحمن مثلا إلا وانشرحت أساريرهما وانبسطت. الخوف من الغاب أقوى من هذا الخوف الذي يمكن أن يأتي من المدينة. والحمد لله. هناك نساء يرعونها. وهناك عائلة كبيرة غنية. وهناك كرم بدا في تلك الزيارة بذلك القدر من المال وبتلك الألبسة التي تكرمت عائلة بنجدي بها عليهما.

تُرِكت عيشة لمصير حياة جديدة. تعوّدت عليها واعتبرتها مألوفة مع ابتسامتها واندهاشها وخوفها الوجودي والطفولي. مالت كفة الأمان مع الأسرة الجديدة أكثر، ما دام أصحابها هم الحاضرون معها والراسمون لتخطيطات يوميّها ومستقبلها. بدأت في تعلم الطرز الفاسي والرباطي، لكنها تعلمت قبله طرق التنظيف والغسل والطبخ وإعداد الخضر وتعديل المساند والأفرشة وتخليل الفواكه

والزيتون وتحميضها وخزنها، وتجفيف لحم القديد... عالم وثروة تجربة جميلة في اكتشافها مرهقة في الحصول عليها. هي ذي حياة عيشة وقد أصبحت فاسية في نظر الناس. لكنها في نظر عائلة بنجدي هي الخادمة الآتية من أدغال الأطلس. هي المختزنة لأنثوية سرعان ما ستنفجر حين حيضها وبلوغها. معالم جسد فتان ورشيق بدأت تثير غرائز المشتهي ومخاوف نساء الرياض.

بدأت معاملات اللطف مسترقة اللحظات من طرف الطامعين، ومعاملات التعنيف والتهديد والإهانة بادية من طرف غيرة نسائية مشتعلة نارُها داخل صدورهن. وكما في الروايات الكلاسيكية، وأشعار الغزل الذي يبيح الافتتان والاهتياج والاشتياق والافتراس الجميل للغزال المصطاد، استطاعت الذئاب أن تنتزع براءة الغزالة. اجترحوها وفضوا بكارتها. أقحموها في وعود لم تكن تدري هل هي حقيقة أم وهم، لعب أم جد، متعة مشروعة أم ماذا؟ لم تكن تدري وقدر مركب صغير يقودها داخل عواصف هوجاء يتفنن الكبار في اضطراباتها وسكينتها.

يوم ضُبِط أحدهم معترشا جسدها الوردي الفتان كانت الولولة والصراخ القعقاع وكان الحسم بضرورة طرد عيشة بنت الشيطان الذي فتَن رجال الأسرة وأغواهم وعمى بصيرتهم. أُرسل في طلب حدو بويمجان بسرعة.

أخذ الفتاة ومعها قدرا ماليا هو خمس مائة درهم. كانت سنة 1984، وكانت هناك أحداث أزعجت الزائر للمدن الكبرى ومنها مدينة فاس. غلاء معيشة متزايد خنق الأنفاس وجعل التصارع بين أفراد العش الواحد. جفاف وقد بدا مهددا بعودة سنوات المجاعة التي تعشش فطريا في نفوس الأجيال المرتبطة بها وبتربية من عاشوها.

كان حدو بويمجان إلى جانب مهاراته التجارية والوسيطية فنانا وشيخا متقنا للضرب على البندير. عشير الطرب وأحيدوس والسهر والخمر والمجون. ثقافة لم تعدم في الأوساط الاجتماعية، لكنها كانت عند حدو أسلوب عيش واسترزاق كذلك. والاسترزاق يكون بكل القيم في هذا السياق، المقبولة منها والمنحلة. وكانت عيشة التي رافقته واهبة قدر مصيرها له بعد أن طردتها العائلة التي وهبت فؤادها لأفرادها حبا وخدمة وتعلقا، حتى إنها لم تعد تفكر في أبويها ولا أسرتها في ضاية إفراح إلا كتذكر واستئناس.

وكيف ستكون حماية الذئب الجديد للشاة المذبوحة؟ سخرية سؤال لم تبحث له عيشة عن جواب. استسلمت لحدو بويمجان في تخطيطاته. أليس هو من جاء بها إلى رياض البطحاء وكون وعالم مدينة فاس وأسرة بنجدي؟ !

حدو بويمجان، وسيط السهرات الموسيقية والاحتفالية. يمارس مهنته منذ طفولة أقحمته في هذا العالم وجعلته

ضروريا داخله. قد لا يبحث عن قيم تؤسس لعلاقاته سوى ما تربى عليه داخل مجتمعه المصغر. هو أدرى بالقانون الحقيقي الذي يحكم الحياة الواقعية داخل مجتمعه. يعلم ما يسير مدينته ولا يتضجر# من استمرار هذا التسيير وهذا المنطق. ما استفاده، عمر منهك من الجري وراء المال واللذة. لكنه استطاع أن يحصن قلعة صغيرة آوته واحتضنت عش أسرته التي بناها منزلا وزواجا وأولادا، وكان ذلك حين تجاوزه عقد الأربعين.

و قبل ذلك، كانت حياته مغامرات وسهرات وعلاقات. طوّرها من بضائع الأسواق والتوسط في توفير الخدمات والخادمات إلى سوق نخاسة جنسية يبيع في الأجساد ويساوم في إغراء هذه لذاك أو هذا لتلك. كانت عيشة إحدى ضحاياه. لكنها كانت أفضلهن عنده وأسذجهن ليونة وتسخيرا. جاء بها من مدينة فاس. أقنعها بالمكوث حيث يشاء. خوّفها من أن تكون حاملا ومن وعيد الأهل إذا اكتشفوا ما وقع. حمّلها الذنب والخطيئة وجعلها مركّبة الشعور بالندم ولوم النفس. وعدها بمستقبل أفضل، وهي الفتاة الكاملة الأنوثة. سيرغب في التعلق بها كبار القوم من الملاكين والفلاحين المشهورين، وحتى من رجال السلطة والنفوذ.

ستة عشر ربيعا، أو خريفا ربما، عمر الورد في نديته والتبلل بطلّه. هكذا وصفها في إنشاد أمازيغي معبّر. أثار غيرة السامعين والسامعات، وكان العاشق لهذا الجسد.

وفّر لها ما تحتاجه في حياتها البسيطة. أنشد لها وحفّزها على الرقص والغناء معه. كانت لهجتها الأمازيغية بدائية وهي التي تربّت على اللهجة الفاسية والدارجة المغربية. أثّث قاموسها ولامها على جهلها بلغتها الأم. جعل لها لقبا في البداية بالفاسية. وما دامت تتقن لهجة المدينة فقد كانت محببة في سماعها وحوارها. تحقق ذلك التعلق بحضور أفراد مجموعته معه في ليالي سمره. أذاقها مشروب (الماحيا) وقبله النبيذ والجعة.

يبتسم حدو بويمجان لحدة ذكائه وبراعة نجاحه في تحقيق تدابيره ومخططاته، لكل هذا الاستدراج وهذه التلبية للرغبات والخير الذي يستطيع إحاطة نفسه به. له قانونه الذي لا يعترف بقانون مكتوب. ذلك القانون المكتوب في غالبه بالفرنسية. هو لغيره وليس له، للناطقين باللغة الفرنسية، وهو الناطق بلغته الأمازيغية والدارجة المغربية (تعربيت). حتى الزواج نادرا ما كان يسجل في وثائق بهذه الجبال المنسية. يعتبر نفسه صاحب فضل على عيشة ويمُنّ عليها كل حين بذلك: أنا الأفضل لك. جعلتك تعيشين في المدينة ورغدها. لو لم تسقطي في فخ وشباك وخطيئةٍ لكنت هناك دائما. الآن، أنا من أنقذك من الضياع. ها أنت تأكلين معي أفضل ما في السوق وتنعمين ببيت يأويك. ما دام حدّو بويمجّان موجودا لن ينقصك شيء.

سنتان مرتا على هذا الكسب لحدو بويمجان. تدرّج في السقوط بها إلى حيث يشاء. وما يشاء إلا ما يفرضه منطق

الاستغلال في فضاءات المدينة واصطيافها وما سُخِّرَت له وظيفة وترفيها واستغلالا. أربع عشرة سنة، استطاعت فيها عيشة أن تكتشف صورة المدينة الحقيقية وأن تزيل القناع عنها والمساحيق التي تخبّئ قبحها.

جمال الطبيعة لا يستحقه أهلها وروادها. هكذا عبّرت عن ذلك للأستاذة صفاء في منفلِت الحكي والحوار.

كانت أختها غيتة هي المكملة لنسج منطق الحكاية وأسرارها. وكان التجوال خلال مدة الاصطياف كافيا لكي تكتشف صفاء تضاريس هذه الهضبة وهذا الجبل، جبل كندر. تقف غيتة مع صديقتها مدعمتين وقفتهما ومستندتين على حرف السور القصير الذي يحيط بالحديقة الصغيرة بالقرب من محطة سيارات الأجرة. تدعوها لرفع عينيها وجعل بصرها ممتدا مع طول الشارع العابر للمدينة آتيا من طريق إيفران ومتجها إلى مدينة فاس في انحدار:

ـ ها هي المدينة أمامك يا صفاء. تبدو جميلة وخلابة. ألا تلاحظين أنواع الأشجار السامقة. وهذا الهواء الذي نفتقده في عيشنا بالمدن الكبيرة وبمكناس. أنظري: مشاريع سياحية وتلك الضيعات الممتدة مع الهضاب المنحدرة،

وهذه الشاليهات والفيلات الراقية التي تمتلكها أسر غنية محلية وخارجية. لكنني الآن أدعوك لكي تنظري إلى هذه الحافة المنحدرة والمتربة. قد لا تبدو لك معها سوى أجمة الأشجار الملتفة حول حوض عين الشفا التي زرناها بالأمس. لكن ما تطويه الحافة ويخون العين اختباء واختفاء، كذئب ينام على خديعة أو ينتظر فريسة، هي الحياة الحقيقية والمرّة التي تأويها المدينة لضحايا المجتمع.

أعتبر وصف الجنة وجهنم في الكتب الأوربية منطبقا على مدينة إيموزار. ما تطويه الحافة يا صفاء كهوف ومغارات. هامش سحيق يتستر على اقتصاد جنس واستغلال للمرأة في نخاسة ودعارة. وبين أحضان هذا الواقع أسست عائلات أعشاشها وربّت أولادها وقاومت وتحدّت ذل وهوان الحال لكي تحاول أن تتشرنق وتخرج في يوم من الأيام منه بقدر تحسن الأحوال وتغيّرها. في هذا الجحيم طمر ذلك اللعين حدو بويمجان حياة عيشة. طمّعها واستغلها ورماها للاستغلال الجنسي. كان الحاضن الذي يشرف على كل ذلك، وعيشة لا تعرف من حامٍ لها سوى هذا الذئب القبيح.

كم ألوم تسمية القبيلة يا صفاء. أضحك ساخرة. لقد أصبح الذئب غير جامد. (وشن يلا سغرو) وليس (سغروشن). البركة التي كانت في بداية تأسيس مجد هذه القبيلة والتي امتدت في جميع الاتجاهات على جل قمم الأطلس

وسفوحه، طارت هذه البركة وبقيت اللعنة هي القائمة كأنها القيامة الباردة تسحق أهلنا ونفوسنا.

كان توظيفي سنة 2000 منطلق محاربة هذا الواقع. كنت خجلة من مواجهته في البداية، لكنني لم أجد بدّا من تحدي مرارته وتجرّع رائحتها في البحث عن عيشة وإنقاذها من هذا الجحيم. كانت روحا ميتة. نضب نبع عينيها. جفت دموعها. لما رأتني واقفة في باب المنزل الذي تقطنه مع أخريات، تحول بياض عينيها إلى جمرتين قانيتين كقنبلتين تنتظران الانفجار الأخير. ارتعشت وصرخت بلغة الطفولة. عوت كذئبة وانهارت موقّعة بذلك حضور أنوثتها اللطيفة والناعمة وبراءتها الأولى. قد يكون الانهيار وفقدان الوعي بداية التخلص لا شعوريا مما يتحكم في لا وعينا ويكبلنا في عقولنا. تُراها ماذا تخيّلت أثناء ذلك المشهد وتلك الغيبوبة التي أسقطتها فكادت أن تهشم رأسها على حرف الدرج الإسمنتي الصلب؟ لم ترِدْ أن تبوح بحقيقة ذلك ليومنا هذا. لم أبحث عن كشفه ولا يهمني الآن ما تضمنه. ما يهمني هو استطاعتي اقتلاعها من قدر ذلك الجحيم وإخراجها لترى شمسا ونورا حقيقيين. لكي تتنفس هواء نقيا. عادت الأيقونة لإشراقتها. لاحظي وجهها ونضارته. لكن، لاحظي كذلك يديها. ورثت تجاعيدهما وخشونتهما من شقاء طفولتها. لم تدرك بأن يديها اخشوشنتا بفعل مادة الأسيد إلا في السنوات الأخيرة. كانت عائلة بنجدي تمتلك محلا لصناعة وبيع الأواني الفضية والمعدنية. وكان فضاء الرياض يتحول كل حين إلى

ورشات لتنضيد وتبييض وتجديد نصاعة المعدن. وكانت يدا عيشة الرخوتين خير أداة للاستعمال برقابة مولاة المنزل والخادمة الكبيرة المشرفة عليها. لو أنها مسحت إحدى عينيها ويداها مبللتان بتلك المادة لفقدت بصرها وأتلفت بؤبؤتيها. لكن الأقدار لطفت بها. إخراج عيشة من جحيم إيموزار ربما كان بداية إعدادي لابتلاء خاص بي حتى أعذرها على ما مرّ بها وما رمت نفسها داخله. لكن من المسؤول طبعا على ما جرى لأختي عيشة؟

خلوة غيتة ملجؤها في استنشاق روحها وسقاية فؤادها. خلوة قررت جعلها في صلاتها. لا أحد تقحمه كصوت حين دخول سفرها ورحابها. استطاعت أن تجرب التجوال الفردي في أدغال الطبيعة. وكأن الحيوانات حين رؤية نظرتها تستشعر عمق غضبها الدفين وتترجم غليانه في لمحاتها. يفر بعضها أو يقف مكبّلا في الحركة كأنه يحاورها ويسألها عمّا بها. قد تحدس غيتة السؤال وقد تطلب سقايتها بعبق الطبيعة. تقف بين مفترقين، هما الطبيعة والمجتمع. تحن إلى وضع طبيعي يجردها من ذاكرةِ ألم ويعرّيها من لباس ثقافة أورثتها هذا الحزن وهذا الجذع المشروخ والمخروم لكي تسكنه ديدان الموت التي بدأت تلعق كل لعاب داخلي عندها.

يوم فكّرت في الانتحار، وكان ذلك لمرات متعددة، صدّتها تلقائيا صورة ابنها عثمان، وكأنها مرهونة لغيرها لا حرية لها في اختيار بين الوجود والعدم، الحياة والموت. تصالحت غيتة مع الضاية التي أنجبتها. قامت بجولات

حول ضفافها. جردت ساقيها من زوج حذائها واحتفلت ببرمائيتها، هي المرأة السمكة. هل من أسطورة تسكن حكي هذه البحيرة. تذكرت يوم حكيها لصفاء عن أسطورة سغروشن. لا تحتاج اليوم إلى تصنيف لها بين الكرامة أو المعجزة أو الأسطورة أو الخرافة. لها قوة داخلية تسكنها. قوة روحية إيمانية خلقت معها ميثاقا وعهدا مع الله تعالى في السماء. تتعلق بالشوق لملاقاته في الصلاة رغبة في التجرد والانسلاخ من هذه المادة. تحقق ذلك أكثر في خلواتها وصبحيات فجرها.
إنما في لحظة الماء وحضرته شعرت باشتياق لذلك الحكي. حاورت نفسها حوله وكأنها تحضّر لدرس سيخضع لمباراة كفاءة مهنية. حرية اختياره هي انجراف هذه الذات لزمن ذاكرة خاصة. من ملأ هذه الضاية؟ دمعة حب أو دموع حرمان؟ قصة عشق بين حبيبين فصل بينهما قدر المجتمع أو القبيلتين؟ نفس القصة نجدها في حكاية إيسلي وتيسلي، البحيرتان بمنطقة إيميلشيل. نفسها توجد ببحيرة أو ضاية إفراح. ربما توجد في مناطق متعددة. تُرى، ما الذي سيكون الأصل؟ تعلّمت غيتة في درسها الجامعي والثقافي بأن الأسطورة تسافر مع الثقافات والعلاقات الإنسانية، تتأقلم وتتكيف وتتبيّأ. هذا النداء لقيمة الحب والانتصار للقلوب التي تكسر العداوات وتدعو لابتسامة حب، لماذا لم ينصفها هي كامرأة، كفتاة، كطفلة على الأقل؟

تمنّت لو أن هذا الماء وهذه الضاية يحوّلانها إلى دموعٍ منسكبة من جسدها ممتزجة بسائلهما، خلاصٍ سرمدي قدّ يبخّرها سحابا في السماء فتحقق لحظة الهيولى الخالدة. لكن الماء تعفف وتحفَّظَ. اكتفى برسالته الطبيعية ووظيفته المادية. ربما كيمياؤه سرٌّ لا يكشفه، لذلك كانت غيتة ضيفته التي تظن ما تشاء. ولها ذلك.

تلاحظ اليومية الموضوعة فوق مكتبها بغرفة نومها، وتاريخ هذا اليوم السابع عشر من غشت 2016. لم تنتبه إلى أن تاريخ مولدها وذكراه هو السادس عشر من نفس الشهر. كان بالأمس ليوم الثلاثاء الذي سبق هذا الأربعاء. لم تحتفل. لم يذكّرها أحد. ليس لها حساب في الفايسبوك ولا في التويتر أو غيرهما من المواقع الافتراضية التفاعلية التي يمكنها أن تستفزها أو تفرحها بمناسبة عيد الميلاد. تحضرها صورة المرحومة السيدة حورية. هي من دوّنت وأرّخت لحدث ميلادها. هي من سجلت لها معلومات البطاقة المدرسية وسهّلت حصولها على عقد ازدياد وأوراق ثبوتية. من سيحتفل معها دونها. وهل يمكنها الاحتفال مع الأموات؟

هذا الجرح الذي امتد لأربع عشرة سنة، منذ زواجها من المسمى عبدالسلام الهدفي سنة 2002. ابنها عثمان الآن في الإثنتي عشرة سنة. انتبهت إلى أن هذه التواريخ تتخندق داخل المسمى بالقرن الواحد والعشرين. وبِمَاذا ستحتفل مع هذا القرن؟

إذا كانت أختها عيشة ـ يوم داعبتها الذئاب قبل استدراجها لنهشها ـ قد خرجت خلال هذا القرن الجديد وهذه الألفية الجديدة، من الجحيم إلى سلام من العذاب والذل والهوان، فإنها هي غيتة التي كنّيت بأم الغيث منذ طفولتها، وقد دخلت إلى جوف هذا الجحيم مع بداية هذا القرن الواحد والعشرين. أية مفارقة تجعلها أكثر اندهاشا بصدمة وجودية وقدرية تستنتجها؟ ماذا ستسجله للتاريخ؟ لا تريد أن تكتب تاريخا مغلوطا. وهو تاريخ لا يكتب أصلا. إنما، ألا يمكنها أن تحاول؟

هذه القصائد بيانات ومرافعات وشكاوى وسجّل جروح مدونة، لا طبيب سيداويها ولا حتى قرنا زمنيا جديدا يمكنه أن يقوم بهذه المهمة. هي العاجزة عن العيش، وهي المتعلقة بخيط رقيق ورهيف في العيش، هو خيط فؤادها عثمان فلتة كبدها. لا تعترف بانتمائه الأبوي. لا يهمها إن كان يحمل اسم أبيه في دفتر الحالة المدنية. الأم تعترف بالهوية الوجودية والطبيعية. هي من أنجبت واحتضنت وهي من تربي، وهي من تخاف وتصون حملها الوديع وتبعد عنه ذئاب الطبيعة والثقافة والمجتمع.

تنظر إلى اليومية وتبدو لها الخانات وقد أصبحت قليلة لاختراق عام جديد بعد أشهر معدودة. عيد بأي حال عدت يا عيد؟

لغة الوشم

يطل الخريف في نهاية شهر شتنبر، وتطل معه السنة الدراسية الجديدة وموسم العمل وضغط الأعصاب وإنجاز الدروس وتصحيح الفروض... عمليات لم تعد غيتة تتحملّها. لم تعد لها رغبة في الاستمرار في العمل. لم تجد حلاً. قانون التقاعد ومسطرته بدآ يبدوان معقدين. سنواتها من العمل لا تسمح لها بطلبه. موجات الاستفادة منه أصبحت كبيرة جدا. مفارقات أدهشتها بين أزمة التعليم والنقص في الأطر وبين الأعداد التي استفادت من التقاعد النسبي مثلا. قد يؤنبها ضميرها، إنما هي عود من رزمة حطب. قد تنساق إلى ما يسلكه عامة الناس. المعايير والقيم اختلفت. كل من يستطيع تدبر أمره ومصالحه الخاصة ولو على حساب الآخرين والقانون والمعايير، فهو ذكي ويستحق التحية. ليس هذا فقط...

تجلس في غرفة نومها. تتكئ بذراعها عل جانب المنضدة وهي في نصف استواء فوق كرسي لم تستقم قوائمه الأربعة في الانطراح فوق أرضية الغرفة. تشعر ببرودة تسري في رجليها وقدميها ولا تعطي لنفسها حق تدفئتهما بجوارب أو بغطاء فوق ركبتيها. ولقد تعوّدت أن توري بظهرها صفحة المرآة: كاذبة. هكذا تعتبرها. لست أنا من يقف أمامك. ولن أقوم بذلك. لن أنظر إلى مسخ عريك وفضحك. أنا غيتة التي كبرت بعطف أمّين،

والتي استفادت من حنانين. رسمت للورود حقولا فوق قمم جبال الأطلس وجبل الكندر شاهد على ما أقول. تسلّقتُه بمعية أمي حورية في فصل ربيع امتد اقترابا إلى صيف موشك على الحلول. كنت بنت الثالثة عشر من عمري. كان حلْمي وكانت السيدة حورية مرافقة وملحّة عليّ لكي أحققه:

ـ كم أرغب في جعل جبال إيموزار مليئة بالورود.

ـ ولماذا ذلك يا غيتة؟ تسألها حورية وعيناها لا تفارقهما ابتسامة وعطف نظر وسعادة شعور برفقة طفلة كان القدر باعثها كصرخة وكاحتضان وكقبلة للولادة الأولى بعد شرنقة مشيمية.

ـ أرى أن الناس مثل الذئاب. ولو استطعنا أن نغرس الورود في الغاب والجبال لاستطعنا أن نغرس حب الألوان والحنان في قلوب الذئاب، فلن تعود مفترسة ولا مخيفة. هكذا لن نشبّه الناس بالذئاب.

ـ هه... وهل نستطيع بذلك جعلهم طيبين.

ـ من؟

ـ الناس؟

ـ سأفكِّر.

ياه. مضى زمن على هذا الحلْم. تُرى، ما مصير تلك الورود التي زرعنا بذورها هناك؟ تمنّيت لو أنها نبتت في قلوب الناس هنا. ما أزال أنتظر. بين مكناس ووجدة وإيموزار كندر، ما أزال أنتظر رسالة الورود. لم تجبني على ذلك هذه المرآة اللعينة. ليّ جسدي الذي أنتمي إليه.

لا يهمني كيف هي هيأته ولا شكله. أكيد أنني لم أعد تلك الشابة الناعمة البضة والرشيقة القوام. جل النساء تفقدن ذلك بعد الإنجاب. ليست مشكلتي هي هاته. أوه. لا أريد أن أفكر الآن ولا أن أحلل.
صفاء. تلك اللعينة العزيزة. رب صديقة لم تلدها لك أمك. اللعنة على الرجال. لا صديق فيهم ولا ثقة. هم، كلهم ذئاب. ولا هؤلاء الذين يريدون تصيُّدي وأنا مطلقة. أشم رائحة لعابهم تحت تبانهم وبين مخارج أشداقهم وإفرازات مسامهم. كلهم ذئاب. وما استطاع ذاك الجد لقبيلة سغروشن أن يوقف تحرشهم ولا نهشهم في جسد المرأة. أين هي ورودي التي غرستها فوق قمة الجبل؟ ربما وهبتها للسماء رجاء. هي دعائي إذن.
تتلمس أصابعها في مرافقة هذا المسح لهذه المعركة الذهنية في التذكر والمحاكمة. البراجم رسمت مداراتها وتجعداتها التي تنقش الزمن عمقا في الروح. لا وداع لقلب جريح. لا خلاص. سيبقى في انتظار هذا الخلاص. الخاتم الفضي وقد حمَل فصا من حجرة ماسية سوداء واتخذ عرضا مناسبا على مدار بنصر يدها اليمنى، يسجّل لفراق العهد أو ارتباط زواج. تديره في لعبة استئناس. ما تستطيع اعتباره جزءا من جسدها. تزحزحه عن مكانه. يبدو لها بياض وقْع حجبه لنور الشمس عن جزء مستدير من أصبعها. تتلذذ بإبهامها وسبابتها بتلك النعومة الرطبة التي تختبئ هناك. وتشعر بحفر الوشم

المستلقي كنقش على صخرة جبل، جلمود أملس صامت عن حكاية الزمن.
عيناها تنحنيان نظرا لمشهد اللمس في هدوء يرافقه سكون غرفة النوم بأشيائها ومرآتها المغيبة عن الاستقبال. ما يزال لونه أخضر. إذن، ما تزال شجرة الحياة مورقة. ما تزال غيتة جذعا يستطيع أن يورق وأن يحتفل بفصول الربيع. ولكن، متى؟ تتذكر، والذكرى لعنتها في لحظات كثيرة من يوميّها، صفاء من جديد. عيشة كذلك. لماذا حضورهما؟
لا تجيب. تنظر بصمت رهيب للوشم الموضوع فوق أصبعها. تعبس في ارتسامة ملامحها وشفتيها. (قَنْ، رْزْمْ). يوم سألتْها صفاء عن هذا الوشم، طبعا أجابتها بما يشبع فضولها الجائع والمتلهف للاكتشاف، وكأن غيتة كنز من حكايا ألف ليلة وليلة، تستمتع صفاء في رحلتها داخل عوالمه وذخائره.
ـ ما تعبير هذا الشكل في الوشم يا غيتة؟
ـ إنه مربع متواز الأضلاع مائل إلى أعلى. له بداية ونهاية. يبقى مفتوحا لاحتمالات جديدة. العملية بين فعلين: قنّ، يعني افتحْ، ورزمْ، وتعني اقفل. لاحظي زواياه بدوائر صغيرة تختمه. الحياة هكذا يا صفاء، نفتح ونغلق ملفاتها. أظن أنني أغلقت موضوعها وطلباتها. لم تعد لي رغبة في جديدها.
حينها، تلقت صفاء الجواب بِصَمْت. لم تُعلّق على ما سمعت. الجرح غائر في الفؤاد قبل أن يكون منقوشا

ومحفورا على جلد الزمن وجسده. اكتفت بعد دقيقة أو أكثر أو أقل بسؤال حول مَنْ ومتى تم نقش هذا الوشم. كانت عيشة هي التي قامت بنقشه فوق أصبع أختها غيتة، سنتان بعد طلاقها الذي لا تريد أن تفتح موضوعه حينها.

تلج صفاء في استضافة لصديقتها غيتة مع أختها عيشة ثوب ثقة شفاف ترسمها ابتسامتها وصدق مشاعرها في حب الطرفين. غيتة الأستاذة والمثقفة والشاعرة التي شكّلتها ظروف الحياة كشخصية مثقفة تبحث لها عن تألق إعلامي من خلال محاولاتها في المشاركة في اللقاءات الشعرية والأنشطة التي تقوم بها بعض الجمعيات. عيشة، تلك المرأة التي تمثل شجرة الطبيعة التي جرفها الوادي إلى عمق سحيق ثم انتشلتها أشعة شمس جديدة كجذع قاوم سلخ لحائه والاتقاد به كحطب.

تجلس غيتة وقد أعجبتها البدلة التي أهدتها إياها صديقتها صفاء في مناسبة منفلتة عن الزمن والحياة. فقد كانت

مناسبة عيد ميلاد صفاء في شهر نونبر وبدايته، هذه التي تبتهج بالمناسبات وبشراء الهدايا والملابس كما بتلقيها من طرف محيطها الذي تعتبره أولى بهذه المهمة وبالمشاركة فيها كفرح وسعادة. وهي مناسبة استغلّتها صفاء للإنصاف ولإدماج غيتة في فلك الاهتمام والتقدير:
ـ تحتفلين بعيد ميلادك في فصل الصيف وتنسين دعوتنا له. لهذا سأحتفل معك به في عيد ميلادي وأرجو أن تقبلي مني هذه الهدية المتواضعة.
لم تكن هدية متواضعة. كانت بدلة أنيقة موقّعة بدار خياطة عالمية في ماركتها وجديدها. ربما كلّف ذلك الأستاذة صفاء قدرا مهما من المال. لم تعتبر 1500 درهما شيئا كبيرا. لا شيء يماثل قدر صداقتها للأستاذة غيتة. لقد اكتشفت داخلها إنسانة صافية لا تستطيع ولا تفكر في إذاية أحد ما. عكس ما تراه في علاقات العمل والصداقات التي جرّبتها. غيتة بالنسبة لها أغنية حزينة تعزف في صمت داخلي بين شجون وعيون فؤاد، تصرخ بوجع الزمان الذي لم ينصفها كامرأة تحب الحياة والتي أقبلت عليها كفراشة فحرقتها هذه الحياة كشمس لفحتها بحقيقة هذه الحياة. لم تكن شمسا خيّرة ولا تلك التي تدل على رمزية إيجابية.
كانت البدلة حاضرة. وحيث لم تكن لتبديَ تصنعا ما في كبرياء متظاهر به أو مصطنع، فإنها لم تجد حرجا ذاتيا في ارتدائها والمجيء بها في مناسبة ثانية حين استضافتها صفاء في منزلها مع أختها عيشة:

ـ هذه الدعوة والاستضافة في الحقيقة هي لأختنا عيشة وليس لغيتة. غيتة مولاة الدار، دائما معي، رفقيتان نحن. مرحبا بك عيشة.

أن تكون الاستضافة للأختيين فهي مناسبة لتبادل الحوار والحديث المتنوع والجديد. كانت مناسبة عطلة مدرسية. ورغم أنها كانت ليومين، إلا أنها زامنت عطلة نهاية الأسبوع فجعلت يوم الأحد مدمجا مع الاثنين والثلاثاء. استفادت خلاله غيتة من يوم السبت الذي لا تعمل فيه بينما كانت صفاء تعمل خلال صباحه. وهي جزئية ليست بالأهمية الكبرى خصوصا وأن غيتة استغلتها في جولة مع أختها لفضاءات المدينة القديمة ومرافقها التجارية. اختارت عيشة خلالها أن تشتري هدية للتي ستستضيفهما مساء ذلك السبت. وكان للهدية طعم الفرح عند صبية صغيرة. كان طاجين فخار اختارته عيشة مع كانون مجمر مناسبين وأنيقين. ذكرتها حين رؤية الهدية بفطرة اللعب الطفولي حينما كانت تتخذ مع نساء المنزل وصبيات الحي زاوية ما لتأثيث فرحهن بلعبة المطبخ ومعروضات المأكولات التي ستقمن بتجهيزها وتقديمها للضيوف. تتداولن وضعيات الأمهات في العبارات المستعملة وفي النفسيات المترجمة والانفعالات القائمة بين أن تسرعن في الإعداد فالضيوف قد وصلوا وجلسوا بغرفة الضيوف ينتظرون الأكل، وبين (آويلي البوطا تسالات ـ ياويلْتْها، لقد فرغت قنينة الغاز)، وغيرها من الوضعيات...

تذكّرت صفاء مناسبة عيد الأضحى. أذرفت دمعة سريعة ارتسمت معها صورة المرحوم أبيها الذي غيّبته المنية السنة الماضية. واتخذ المجمر وطاجينه مكانا أوليا للديكور كتحفتين طينيتين استغربت عيشة لذلك في البداية في نظرة سريعة وملمّحة لأختها غيتة، لكنها سرعان ما اعتبرت ذلك عاديا مؤجّلة سؤال الفضول عن مكان وضع الهدية إلى حين. كانت الهدية قد زيّنت زاوية من الصالون بجانب أثاث فضة وبلور. ركزت نظرات غيتة على المشهد في التقاط جمالية انطباع وتعبير. فعلا الحياة تستحق أن تعاش لكي نرى مثل هذه اللحظات وهذه التوافقات الهارمونية التي تخلق السعادة والفرح والانشراح.

كان عثمان ابن السيدة غيتة قد اختار بعد انتهاء وجبة الغداء التي دُعِي إليها، الذهاب للمنزل لكي يتفرغ لعالمه في الأنترنيت والموسيقى التي بدأ يعزفها على آلة الغيتار. عثمان الذي اتخذ لشخصيته ما يميزُها في اللباس وتسريحة الشعر، والذي لم يغفل ما يرضي قلب أمه في السلوك الحسن والأخلاق المناسبة في التعامل داخل المجتمع وعالم الدراسة عموما... وبقيت السيدتان لقضاء أمسية يوم السبت مع الأستاذة صفاء. إنما ما الذي سيجعلهما تقبلان قضاء الليلة مع صفاء؟
عبدالنبي داكور، زوج السيدة صفاء، وأستاذ كذلك بحقل التعليم. يزاول مهامه بثانوية أخرى، لكنه متفرغ للعمل

النقابي داخل تنظيمه الذي انخرط فيه منذ أكثر من عقدين. محطته لنهاية هذا الأسبوع والتي تجهده كسفر وتنقل ومبيت إما في فندق أو كضيف عند أحد الأصدقاء والمناضلين، هي العاصمة الرباط. وقفة احتجاجية من أجل إيقاف تطبيق نظام التقاعد الجديد.

ينتمي الأستاذ عبدالنبي داكور إلى جيل آمَن بضرورة العمل الحزبي والنقابي. يرى فيهما طريقا لتحقيق كرامة المواطن. ما يزال يرى أخطبوط التخلف في عقليات تتحكم في المصالح والاستغلال لخيرات البلاد. جيله أدى التضحيات والاعتقالات. رموز النضال النقابي أصدقاؤه في تاريخ أُجهض كحلم. إنما، على الأقل، يشعر خلال كل هذا بأنه عاش في كرامة. سيتقاعد هذه السنة، ولن يشمله التطبيق الجديد لا ماديا ولا احتسابا لسنوات العمل والتقاعد الجديدة. رغم ذلك فإنه يرى ما لا يراه الآخرون. يعتبر نفسه مسؤولا عن الجميع. شعلة نار هو وعيه وخطابه. جلسته بمقهى الخزامى ("لاتوليب"، كما هو متداول نطقها وتعريفها) بالمدينة الجديدة حمرية، هي جلسة النادي الذي يجمع النقابي والحزبي والحقوقي والمحامي والإعلامي وغيرهم كثير.
ما يميز هذا المقهى أنه يجمع نخبة تمثل المجتمع المدني والمهني والسياسي كذلك. هذا الجيل الذي استفاد حضوره من تعليم وتكوين وامتياز بناء حياة وأسرة ومستقبل لأفرادها يجعله مشكلا للطبقة المتوسطة أو قريبا منها.

جيل يشعر بحدسه أن الخطاب الجديد الذي يتغنى بالطبقة الوسطى يعنيه بالكلام. يشعر بمسؤولية ومحاسبة وفخر في نفس الآن. لكنه شعور لا نراه عند كل رواد المقهى، وليسوا كلهم بميسوري الوظيفة العمومية أو المشاريع الخاصة طبعا. والسيد عبد النبي داكور يعتبر نفسه دائما، رغم تغير حاله إلى أفضل ويسر عيشه الآن، أنه ابن الطبقة الكادحة والعاملة والمناضلة. يشعر بأن خطاب الطبقة الوسطى هو خطاب برجزة حتى يقيلوا أفرادا مثله من النضال والدفاع عن الطبقات الكادحة داخل المجتمع وعن القضايا الوطنية التي فارقتهم في الطريق عن هؤلاء الذين امتصوا الدماء أو حلبوا خيرات البلاد بدون حسيب ولا رقيب.

هو عبدالنبي داكور، رغم أنه لم ينجب أولادا إلا أن أفراد أسرته الكبيرة كلهم أولاده. ناضل ودعم الكثير في مشوار حياته. دافع عن ملفات حقوقية ومهنية. وقف في المحاكم وواجه الاتهامات بضدها وكشف المستور الذي تلفقه العقول الماكرة، ها هو الآن وكأنه يخوض آخر معاركه قبل تقاعده.

صلابة جسد اشتعل رأسه شيبا. دعابة كلام لا تفارقها ابتسامات مستمرة ونكات ومستملحات كلام. يكون في جلسته أكثر شبابا من الشباب وأكثر جرأة منهم في التطرق للممنوع من الكلام. حيويته لا تنضب وزوجته لم تجد مشكلا في توافقاتهما وشكل حياتهما. رضيت بقسمة

الزواج وتعيش هي الأخرى بطريقة مناسبة تغني الوعي وتقنعه بالموجود.
كانت السيدة صفاء تقضي نهاية الأسبوع مع ضيفتيها غيتة وعيشة، وكان السيد عبدالنبي في رحلة نضالية جديدة ومتجددة للعاصمة الرباط.
الضيافة المغربية كما غيرها توفير بدلات نوم وأغطية ناعمة جديدة نسبيا ومخصصة للضيوف. الجسد وقد يتحرر من قيود اللباس وحجابه، يعود لحريته التي لا يؤمنها له سوى هذا الليل الصامت على اعتقالات الروح داخل الرموز والعلامات والأقنعة. جلسة نسائية تحرر فيها الكلام وأَلِف الحاضر معه وفيه. والنفس كذلك وقد احتاجت إلى فك أسرها بعيدا عن رقابة أعدائها الذين تخلقهم تناقضات المعيش والركض وراء سراب الحلم والأمنيات...
المكيف الهوائي وقد شُغّل منذ بداية الأمسية لتدفئة الغرفة التي تجلسن فيها جعلهن تتخلّصن من الألبسة الغليظة التي يفرضها مناخ فصل الشتاء الذي بدأ باردا وقاسيا قبل أوانه المعتاد. تقلبات الفصول وقد تناولتها السيدة غيتة في دروسها حول البيئة والاحتباس الحراري، لم تغِب عن وعيها وتعاملها معها ومع استعداداتها.
كل هذا توارى لكي يجعل للقاء مع الأخت والصديقة دفئا خاصا ينضاف لدفء المكيف الكهربائي. وكان للجسد حقه من الحضور ومن الظهور ومن التناول في الحوار الثلاثي، كما للتغذية وأنواعها وللّباس وأعراض الصحة

والمرض والثقافة الأنثوية المرتبطة بخصوصياتها التي تنحصر داخل دوائر كلامها وحديثها.

يغتنم عثمان ليلة حرية يستغلها مع صديقه وابن جيرانه من نفس العمارة التي يقطنان فيها. متقاربان في السن وفي المستوى الدراسي رغم أن مؤسستين تعليميتين خصوصيتين تفرقانهما في يوميّ التعلم. موهبتهما موسيقى وأنترنيت في البحث والغناء والاستعمال. لكن حدود ذلك تفرضها قيم تربوية تتأرجح بين حب المغامرة ومزيد اكتشاف وفرملة كل ذلك بردع أخلاق وخوف من اختراق. وكانت لهما ليلتهما الخاصة بعيدا عن رقابة الآباء أو الأمهات.

كان السيد عبدالنبي داكور في ضيافة رفيق له في الحزب والنقابة. كانوا خمسة جعلوا لنهاية الأسبوع برنامجا خاصا وموزّعا بين الجلسة المسائية الأخوية والخرجة النهارية النضالية.
و ها هن في جلستهن المسائية الآن. تشاء الصدفة أن تبلل عيشة لباسها بقطرات من كأس الشاي الذي كان بين يديها يدفئها وينعش مزاجها وهي المدمنة على تناوله. ستحتاج في أمسيتها لتنظيف كسوتها وستحتاج معها صفاء لكي تبحث لها عن بدلة تناسب طولها وهيأتها. قامت بقياس بعض مما تمتلكه صفاء فلم يكن مناسبا لارتدائه من طرفها نظرا لقصره. احتاجت لكي تبحث في ملابس زوجها سي عبدالنبي عن بدلة رياضية ملائمة. وجدتها في لونها الرمادي الفاتح والتي نادرا ما كان يرتديها:
ـ ليسمح لنا سي عبدالنبي هذه الليلة، سنهجم على ملابسه.

تبتسم صفاء وهي تعلق على الاختيار أمام عيشة التي بقيت بلباس تحتي تنتظر اختيار المناسب. وتلاحظ في نفس الآن ذلك الوشم الذي ينحدر بين فتحتي نهديها. خط أخضر صغير عمودي. كانت "السيالة" هي التي اعتادت على رؤيتها أمامها فوق ذقن السيدة عيشة، لكن، أن توجد أوشام أخرى يخفيها الجسد كان أمرا أدهش السيدة صفاء ودعاها إلى مزيد فضول في الاكتشاف والمعرفة.

ـ جميل هذا الوشم يا عيشة على صدرك. كيف جعلته هناك.

ـ هي العادة عندنا يا صفاء. لكن نقوشه تختلف في الوظيفة. المرأة تجعل الوشم احتفالا بمرحلة عمرية أو بإنجاب أو بأحفاد. تسجل الحدث على جسدها ويبقى حاضرا دائما.

ـ أنا عندي شامة هنا، انظري.

تضحك عيشة بملء صوتها وهي تنظر إلى تلك الشامة. تعلّق بعد ثوان:

ـ لا. هذه عندك طبيعية، أما هذه فقد طلبت من سيدة أن تجعلها على صدري.

ـ ولماذا جعلتها فوق صدرك؟

ـ أنت تعلمين كل مكان في الجسد يعبر عن شيء ما. قريب من القلب. قريب أن يكون خنجرا. الزمان وطعناته يا صفاء. لكنه كذلك القوة التي يجعلها القلب لمواجهة هذه الطعنات. كلما نظرت إليه أمام مرآة شحنت نفسي بقوة جديدة. الآن أصبح شيئا عاديا، قليلا ما يثير هذه الحسرات.

ـ والوشم أسفل شفتك؟

ـ هذه السيالة. تعطي جمالا بحسب شكل الوجه. هي ثلاثة خطوط دالة على ثلاثينيات عمري حين وشمتها. لكن، كما تلاحظين، فهي قصيرة لا تغطي عرض قسمات الوجه ولا الشفة.

وبينما هما في حوارهما وقياسهما للبدلة سمعا نداء السيدة غيتة بصداه بين ممر الغرف، آتيا من غرفة التلفاز والجلوس. سارعتا للالتحاق بها والابتسامة والفرحة ترافق نظراتهما وملامحهما مع هذه الأسرار الصغيرة التي تبادلاها حول الوشم والشامة وحول خريطة الجسد عندهما.
بادلتا غيتة مضمون الحوار الذي دار بينهما والذي توسّع ليصبح حوارا ثقافيا ومعاينا للوشم والخال# في أجسادهن الثلاثة. وطبعا، فقد شعرن بحرية غريبة في رحلة اكتشافهن وفرحهن. علّقت السيدة عيشة في ضحكة طفولية خفيفة وبريئة:
ـ والله لقد فكّرتموني في اغتسال النهر ولعبه القديم في طفولتي الأولى. كنت قد نسيتها فعلا، لكن هذا الحوار ذكّرني بصيف ما. كانت غيتة فيه في طفولتها الأولى. استحممنا وقمنا بغسل الصوف قبل ذلك وتصبين أغطية. كنا نساء وفتيات بجانب ضفاف الضاية المواربة للأنظار بفضل أشجار جانبية قليلة ومنفلتة بعيدا عن مكان الأقدام أو الزوار.

ترقرقت العينان واختلطت الابتسامة مع حسرة وحنين عند عيشة كما عند غيتة، هذه التي تابعت بوحها الجريح:
ـ أنا اخترت الوشم لكي أحدّ من ضعف نفسيتي المطعونة بجراح زواج خائب.
ـ لا عليك يا غيتة. كل شيء انتهى الآن.
ـ لم ينتهِ بعدُ يا صفاء، رغم أنني أقول إنه انتهى. تصوّري أنه تزوج من سيدة أخرى ولا أدري ما حكى لها، لكنه جعلها تتجرأ وتتصل بي استفزازا وتهكما. لا أعلم كيف يكتسب الناس كل هذه الوقاحة؟ وأكثر من ذلك. ما يزال لحد الآن يسأل عثمان عن تفاصيل حياتي ويتدخل بطرق بشعة مثيرا له مواقف وسلوكات لكي يتصرف كحارس أو مراقب لتصرفاتي. ألاحظ ذلك حينما يعود عثمان من لقائه به. يجعله نسخة له في طريقة الكلام ونبرات الرد والحوار.
ـ كيف ذلك؟ تعلّق صفاء.
ـ وقع هذا منذ أربع سنوات وزيادة. اتصال هاتفي مجهول المصدر. صوت نسوي على الخط. عرّفت بنفسها:
(أنا زوجة رجلك السابق. كيف كان يتحمّلك بتصرفاتك؟ لم تُقدّري رجولته ولا صبره معك. لم تحافظي عليه. عليك أن تتعلمي كيف تكونين امرأة).
ـ يا للوقاحة !
ـ لا عليك صفاء. لقد مرّ كل هذا. بقي الآن هذا التنكيد والتكدير # للعيش كلما التقى بابنه وشحنه بأفكار مسمومة. المشكل أنه سيَجني على الولد وليس عليّ أنا. فقد ضاعت

حياتي الآن لم يعد لي فيها سوى عثمان كأمل. أما ذلك المعقّد فقد نال جزاءه حتى من الزوجة الأخرى.
ـ كيف ذلك؟ تستمر صفاء في اكتشاف عالم غيتة ومعاناتها.
ـ اتصلت بي في بداية شهر شتنبر. طلبت مني مسامحتها واعتذرت عما صدر منها وبدأت تحكي لي ما تعانيه معه. لقد طلبت هي الأخرى الطلاق واتخذت مسطرة الشقاق حتى ترتاح من جحيم العيش معه. حكت لي عن أسرته وعن عقده وأسراره وغرائبه. لم تنجُ هي الأخرى من الشك ومن السب ومن الاستغلال. يدّعي العفة والصرامة. يدّعي الحصانة والطهارة. لكنه يعيش في بيئة كلها أسرار غريبة. أقنعة ملائكية وفضائح شيطانية. لمست بعضها حينما كنت معه أزور عائلته الكبرى، وحكت لي زوجته وطليقته الجديدة بعضها الآخر، وبالمناسبة فاسمها هو لطيفة. تأكّد لي كل تخمين كان يدور في ذهني. اللعنة على حظي المتعثر مع معقّد لا يليق للمعاشرة.
ـ آزْمّ !
ـ آزْمُّ.
تضغط بدقات بقبضة يدها اليمنى وسط راحة كفها الأيسر. تجعل الخاتم يستدير مع الوشم المنقوش تحته. تنظر إلى اخضراره وشكله. تسهو مع شاشة التلفاز. ترشف# من كأس الشاي أمامها وتذهب في صمت هادئ شاركتها فيه كل من صفاء وعيشة.

ستستدير صفاء لتسأل عيشة عن معنى كلمة (آزم) آزم، رزم: اقفل الموضوع.
تتذكر صفاء بأن وشم أصبع غيتة ينتهي ب(رْزْمْ). ستقفل الحديث في هذا الموضوع وتنتقل معهما إلى موضوع آخر. لِمَ لا.
ـ ما رأيكم في هذا المغني الشعبي (طَهور)؟ كل مرة هو في سهرة نهاية الأسبوع في هذه الشاشة التلفزية. ليتهم سمّوْها (شاشّة).
تضحكن جميعهن وتنشرحن لهذا التحويل في الحديث والحوار. استطاعت صفاء معه أن تنقذ صديقتها غيتة من اكتئاب مفاجئ يمكنه أن يكهرب نفسيتها ويدخلها في قوقعة حزن جديدة مثل نار بركان هامدة. تستدير جهة عيشة وتشرح أكثر وعيناها # متفجّرتان ضحكا في بداياته:
ـ جعلونا مثل البهيمة. نقول لها (اشّا) (تجمدوا دون حركة!) ـ حاشاك آ لالة عيشة. اعذريني على هذا الوصف والتعبير ـ فتقعد أمام هذه الشاشة. أظنها أصبحت تكبيلا جديدا لحركتنا وتفكيرنا وحواسنا.

قضين الليلة رفقة سهرة الأسبوع. في الصباح كان من المفروض أن يلتحق بهن عثمان قبل أن يذهب لمقابلة في كرة القدم سيجريها بملعب مؤسسة تعليمية عمومية. اتفق مع أصدقائه على ذلك مساء يوم الجمعة، ما دامت ملاعب المؤسسات العمومية المدرسية وقد أصبحت في متناول الشباب لكي يمارسوا فيها رياضاتهم المفضّلة، وما دامت مؤسسته التعليمية الخصوصية لا تتوفر على ملاعب خاصة.

جلسن لارتشاف جرعات قهوة سوداء ساخنة بعد تناول وجبة الفطور. شغّلت السيدة صفاء التلفاز. برامج الصباح على القنوات الوطنية. انتقلت عبر لائحتها المرئية على الشاشة. كان حظ قناة إعلامية وإخبارية حاضرا في ضغطها على رقمها وتسميتها. هو برنامج ثقافي وحواري مع فنان تشكيلي. سبق للقناة أن سجلته مع الفنان التشكيلي المرحوم عبداللطيف الزين. أسفل الشاشة أخبار مكتوبة لآخر المستجدات العالمية والعربية. خبر مسيرة الرباط

التي ووجهت بتدخل عنيف من طرف رجال الأمن أثار السيدة صفاء وجعل حدسها يقرع الطبول مع نبضات قلبها. خوفها على زوجها وقد شارف الستينيات من العمر. خوفها على وضعه الصحي وقد سبق له أن أجرى عملية جراحية قبل ثلاث سنوات لتوسيع أوردة ضخ الدم في القلب. استشعارها سوءا قد وقع جعلَها تستنفر صديقتها وهاتفها المحمول. دامت رنات الهاتف متكررة لا يجيب عليها زوجها عبدالنبي داكور. اتصلت بأرقام لأصدقائه النقابيين المرافقين له. لا أحد يريد الرد على مكالمتها. انتظرت ربع ساعة تقريبا وهي في حالة توتر، كان السيد عبدالنبي هو المتصل أخيرا:

ـ ما الذي وقع؟ لماذا لم تجيبوني على الهاتف؟ بقيت متوترة وخائفة. الخبر في القنوات الفضائية مرعب. هل من إصابات فعلا؟

ـ هناك إصابات فعلا. لقد تعوّدنا على استضافتهم لنا بها منذ عقود. إنما هذه المرة يبدو أن (الزرواطة) عادت لحنين عنفها القوي. كسور وجروح غائرة بين نساء ورجال التعليم والنقابيين. لا تقلقي سنعود لمكناس. حاولي أن ترتاحي قليلا.

ـ قل لي: متى ستعودون؟

ـ يمكن أن نبقى حتى ليوم الاثنين. الصديق عمر الباري يلح على بقائنا عنده لمناسبة عائلية. لا تقلقي. هل ما تزال الأستاذة عندك مع أختها؟

ـ نعم. لكنني غير مرتاحة البال بسبب ما قرأته في أخبار التلفاز.
كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف بعد الزوال. اقترحت السيدة صفاء على ضيفتيها الذهاب إلى مدينة الرباط في جولة لما بعد الظهيرة. فكّرت السيدة غيتة في ابنها عثمان، وكان أن بقيت السيدة عيشة بمكناس حيث رافقتاها إلى منزل أختها، وذهبت الأستاذتان مباشرة دون تفقد منزل غيتة، في رحلة استطلاع أو استكشاف. اعتادتا على الرفقة في كم من مهام داخل المدينة وخارجها. كم من واجب اجتماعي في تعزية أو في مباركة أو في نزهة قامتا به مع زميلاتهن. مرات بمدينة إفران وأخرى بفاس أو الحاجب أو غيرها من المدن. ها هما في مهمة خاصة وكأنهما صحفيتان أو محققتان تريدان التأكد من الخبر الذي نشر، رغم أن بال السيدة صفاء كان قلقا فعلا. كلَّ مرة ينفلت انزعاج وتحسّر يقطع عليهما وديع الكلام والحوار. كان دور غيتة هنا معاكسا ومستمرا في الطمأنة والتخفيف على صديقتها من وسوسة الاحتمالات.
ـ هل قلب المرأة بوقع النبوءة والتنبؤ؟ غالبا ما تستشعر ما وقع أو سيقع. هذا حالي الآن.
ـ لا تقلقي عزيزتي. كل شيء سيكون في خير حال. أريحي بالك الآن فقط.

شارع محمد الخامس وقد أخذ حُلّته الجديدة. بياض يرسم جمالية العمران وهندسته. أشجار تنتظم لتوقّع هدوء المساء المقبِل بعد حين. اتخذت السماء لونا أرجوانيا اختلط مع زرقة لازوردية جميلة عانقتها أضواء المصابيح الموزعة بين أرضيات الشارع وأعمدتها القائمة. أطلال الهندسة الشامخة لبعض البنايات ازدادت سموقا مع خيوط الضوء الهاربة من منابعها بحثا عن اختراق للأمنتهَى السماء وكأنها فراشات تبحث عن احتراق. هنا كانت أشعة الضوء بقدرٍ ما تنفرش وتنسدل منبسطة على الفضاء المشكّل للأرض والسماء والمكان ـ ولا ندري أين تبدأ السماء، هل بقياس رؤية العين أم بشيء آخر؟

شعرتا بأنهما دخلتا في مغامرة فريدة. كيف لهما أن تأتيا إلى العاصمة في لحظة غروبها؟ هل ستستمتعا برومانسية اللحظة أم بهواجس دفعتهما لزيارتها؟
لا يخفى على بالهما ما يقع بهذا الشارع الرئيسي للعاصمة. كيف أصبح قِبلة للاحتجاج والنضال والمطالبة بالحقوق.

سبق للسيدة صفاء أن شاركت مع زوجها في مسيرات كبيرة خلّدت لتجارب امتحان المشاركين والمشاركات في درجة وعيِهم وقدرتهم على الصراخ والاحتجاج وترديد شعارات مسَهَّمة وهادفة. تاريخ نضال السيد عبد النبي ارتبط بمحطات المطالبة بتعليم عمومي مشرّف وبالدفاع عنه وبرفض مجموعة من اقتراحات الإصلاح التي تريد الإجهاز على ما تبقى من كرامة هذا البلد. ارتبط بمسيرة المطالبة بإصلاح مدونة الأسرة. كان خطهما مع تيار الحداثة والمعاصرة. وكانت نسبية الموقف توقع حرجا في نفسيتهما مثل باقي المتظاهرين. وقد تجلّى ذلك في عدم الحسم صراحة في مجموعة من القرارات المقترحة لإصلاح مدونة الأسرة أو تفعيل مجموعة من القناعات. تبدو تلك الاحتجاجات مخيط سحاب لإعصار يريد نزع ثقافة من وجدان مرتبط بأصول أخلاقية ودينية. ينفضح كل شيء حينما لا يجد الجل جوابا شافيا في الفصل بين ما هو ديني وما هو دنيوي في اقتراحات الإصلاح والتطبيق السياسي.

ـ ما نزال أمة متخبّطة... هكذا يكون رأي السيد عبد النبي كل حين، يعبّر عنه بصراحة لا تخلو من سخرية تناول وصراحة بوح يجعل الواقعية التي تصاحب قرارات قناعاته ونضالاته أقرب في الاختيار من طرف مرافقيه الذين يرون فيه تجربة جيل من المناضلين النموذجيين الذين يمكن الاقتداء بهم والالتزام باختياراتهم.

لا أثر لما قرأته السيدة صفاء على شاشة القناة الفضائية العربية الدولية. المساحات الخضراء القليلة التي بقيت صامدة في امتدادها عبر الشارع اتخذت لونا داكنا في عشبها وسعف نخيلها. راقصتها الأنوار في بياضها الذي ترسله كلواقح في هذا الليل الرباطي البارد. لكنه لن يكون بدرجة قساوة المناخ القاري الذي أتيَا منه.

على الرصيف، سيدة كفيفة تجلس على كرسي بلاستيكي صغير. تضع أمامها علبة كارتونية مقلوبة وتضع فوقها أوراق تنظيف للبيع. على واجهة الصندوق كُتِب:
(ساعدونا في البحث عن عمل وضمان لقمة وعيش كريمين. الجمعية الوطنية للمكفوفين حاملي الشهادات العليا).
بيدها اليسرى تحمل علبتي سجائر، الأولى حمراء والثانية خضراء داكنة. لم تختبر السيدة صفاء ذهنها في معرفة نوعية علب السجائر هذه. منذ مدة كان زوجها قد ترك التدخين. خرجت لعبة أسمائه من ذاكرتها.
ـ يبدو أننا سنحتاج لسؤال الناس هنا.
ـ لمَ لا تهاتفين زوجك السيد عبد النبي؟
تستلطف السيدة صفاء بائعة المناديل الورقية. تستأذنها في سؤال حول يوم الأحد في هذا الشارع وتسمع الجديد المدهش:
ـ اليوم كان الدور على الأساتذة. شبّعوهم عصا. الهرماكة بلا رحمة. حتى إن سيدة صرخت من ألم الضربة على

كتفها. هذا الأسبوع ثلاث مسيرات كبيرة عرفت تدخل الزرواطة وأصحاب الحال. أما نحن فقد شخنا وكتِب لنا أن نموت في هذا الشارع عطالة وفقرا ومرضا وتهميشا. لقد نلنا حقنا من العصا كمكفوفين منذ 15 سنة وزيادة. أحاطونا بزيّهم وأحذيتهم وعصيّهم. لم نكن ندري من أين تأتي الضربة ولا الرفسة. منذ ذلك الحين قلت لقلبي لا تنظر إلى هذا الواقع، مُتْ في هذا الشارع واتركهم يدفنونك فيه.

ـ نتمنى حل كل هذه المصائب آ الشريفة. تعلّق صفاء.

ـ أنت أستاذة أو طبيبة أو دكتورة معطّلة؟

ـ أنا أستاذة من مكناس. جئت أبحث عن زوجي كان هنا هذا الصباح.

ـ ومَنْ يكون زوجك؟

ـ السيد عبد النبي داكور.

ـ أووووه! أعرفه جيدا. مناضل صادق. لقد نال حظه بضربة على الكتف. لا تقلقي سيكون بخير.

و أخيرا جاء الخبر، رغم ألمه فقد بيّن خيطا لمعرفة ما وقع وأين يمكن أن يكون الزوج الذي أتى لوقفة احتجاجية سلمية. ألحّت على صديقتها السيدة غيتة لكي تذهبا معا إلى مقهى بممر بين شارع محمد الخامس وزنقة بيروت في اتجاه زنقة المامونية:

ـ تعاليْ. هنا يجتمع النقابيون المحليون.

لم تجدْ ولو واحدا منهم. إنما سؤالها لنادل المقهى أرشدها إلى فكرة زيارة مقر النقابة. وجدت هناك البواب المكلف بالعمارة بأكملها. ووجدت عنوانا قريبا. لم يكن سوى عنوان إقامة السيد عبد المومن الغرفي صديق زوجها ومجايلُه في النضال النقابي والسياسي.

استغرب السيد عبد النبي داكور لمجيئها مثلما استشعر وجود من تستحق أن تكون له قضية من أجلها. لم تلُمْه السيدة صفاء على شيء. تعلم قناعته والتزامه بها. اطمأنّت على حاله وكان هو من طلب منها العودة إلى مدينة مكناس برفقتهما. رافقها مع صديقه في فرع النقابة بمكناس والذي بقي بجانبه في رحلة الاستشفاء وجبر الكسر في الذراع بين مصحة أكدال ومنزل السيد عبد المومن. وكان لبائعة أوراق النظافة حظ من حوار الطريق السيار. لم يشعر الأربعة بطول مسافة ولا بملل منعرجاتها وظلمة مسارها.

ـ الدكتورة سعاد. هي تسميتها المشهورة بها في الشارع وعند المناضلين. قيدومة الوقفات الاحتجاجية بالرباط. مكفوفة وحاصلة على شهادة الدراسات العليا. ناضلت من أجل الوظيفة ونالت حظها من الاحتقار والضرب كذلك. لم يسعفها فقدانها للبصر شفاعة لكي تنال عطفا إنسانيا. كان تخصص إبعادها وركلها وسبّها من رجل أمن مشهور بتكليفه بصدّ الوقفات الاحتجاجية. تصبح عاهرة وساقطة وبنت الخلاء وما لا تقدر الأذن على التقاطه ككلام على

لسان هذا الشخص. وكل النساء المشاركات في التظاهرات، تكُنّ "كعكة للاستلذاذ في التعامل معهن من طرف هذا المريض والسادي"، كما وصفه بذلك السيد عبد النبي خلال رحلة الطريق.

تسمع السيدة غيتة الحوار الثلاثي القائم داخل السيارة وتلتفت للنظر في اللاشيء الذي تحتويه ظلمة النافذة التي أغلق زجاجها لأجل تدفئةٍ داخل السيارة بسبب برودة طقس فصل الشتاء. تستحضر من جديد خلال كل ذلك صورة هذه الآنسة سعاد. تعتصر معاناتها في نفسيتها وتعتبرها جزءا منها كأنها هي سعاد وسعاد هي غيتة. أخيرا اتضح لها أن هناك أشخاصا يعانون الأمرّين في الحياة وليس غيتة فقط. لكن هذه المعاناة تعيشها النسوة أكثر. صحيح أن السيد عبد النبي ورفيقه من المناضلين القدماء المعروفين بنزاهة مواقفهم وعدم بيع ضمائرهم للمساومة في قضايا الشغيلة. لكن الاستثناء لا يلغي القاعدة. القاعدة أن الرجال كلهم وحوش، وبالأخص إذا صوّر خيالها ذلك الوحش الذي سمّوْه ب(بوشعيب) والذي يستلذ بضرب إنسانة مكفوفة وسبّها وإهانتها هي وباقي المطالبات أو المحتجات في وقفات أو مسيرات سلمية بشارع محمد الخامس بالرباط.
كانت سكاكين تجترح بها ذات السيدة غيتة. وجدت فيها ما توقد به نار وعالم الألم في كينونتها المحترقة بالمعاناة. كلما همد حريق هناك اتقد في ال(هناك). ولن يكون هذا

ال(هناك) سوى غريب الروح والذات الذي لم تجد له مداواة فبالأحرى خلاصا.
كانت السيدة صفاء ملتزمة بالقيادة دون أن تنسحب من هذا الحوار. لكنها لم تدرك ما هو وضع السيدة غيتة إلا حين وصولهم إلى مدينة مكناس وإلى باب إقامة صديقتها. حينها اكتشفت الاحمرار في عينيّ غيتة، لكنها أجّلت الاستفسار والتعليق واكتفت بالقول حين الوداع على الساعة الواحدة ليلا:
ـ على الأقل قمنا بمهمة واكتشاف هذا اليوم. تصبحين على خير.

ما الذي أقلق السيدة غيتة؟
كانت السيدة صفاء موزعة الذهن ومشوشة بين ما وقع لزوجها وما تركت عليه كحال صديقتها غيتة. استغربت لتماسك أعصابها وحفاظها على صلابة جأش أمام صدمة الجبيرة التي وضعها على جانب كتفه الأيمن. اليد المعلقة بحزام طبي وكأن ما وقع استغرقه زمن طويل اختصره نهار يوم الأحد القصير في شهر دجنبر هذا. أيام وتنقضي سنة. أيام ويبدأ العد لعمر آخر متبقٍ ومتساقط الأوراق كشجرة في خريفها. كسْر زوجها وكأنه جذع شجرة جرفته آليات اجتثاث طاحنة. صديقة تحترق واقفة ومستشعرة. ما هذا الزمن الذي يكوي بنيران الوجع أصحابه. بقدر عناصر السعادة المنتشرة بقدر شقاوة الحصاد التي يجنيها الوعي في نهاية المطاف.

ينام السيد عبد النبي كطفل صغير أرهقه يوم شاق وأرعبه زحف الهراوة التي رآها في منامه من جديد. تلك الشجاعة التي امتلكها وذلك الصوت الذي كان يصد به نزولها على جسده وقد تحولا إلى إجهاش صامت لصبي صغير أفزعه المشهد في غياب حضن أمٍّ سيحميه. تظهر على المشهد فجأة أجنحة ابتسامات صفاء مرفرفة بعطرها المعتاد.

تبرق عيناها بنور ضيّاء تنقشع معه مشاهد الهراوة وأنياب ذئاب جائعة، مشتهية للدماء، عويلُها وقد تزايد مُغرقا عبد النبي في جوف الالتهام، قبل أن تبزغ شمس صفاء بألوان النهار داخل هذا الحلْم المضطرب والمتناقض. تحوّل التعرق المقرون بصور الرعب إلى برودة كاملة. لامستْ جسد زوجها بجانبها فوق السرير حينها، بعد استشعار ارتعاش وهمهمة صوتية دالة على كابوس وقد تحوّل إلى رعد همهام قبل أن يخبوَ كجمر منطفئ في صقيع بارد. لاحظت البرودة. استنفرت ما امتلكت من عقل وقوة. قاست النبض، لم تجد له دبيبا. جسّته علّه مخفي في مسارب ما. لم تجد له أثرا. حرّكت الجسد الممتد، صرختْ:
ـ عبد النبي، عبد النبي... !؟ ربّاه ! لا ترني بأسا في هذا اليوم.
هاتفت بسرعة أقرباءها، ذويه وأهله. سارع الطبيب الصديق إلى المجيء. كان التوقيت فجرا حينما غادرت سيارة الإسعاف باب الإقامة. وكانت الشقة ملآى بمن استطاعوا المجيء في هذه اللحظات المرعبة والمؤسفة.

توفي السيد عبد النبي داكور. والتقرير الطبي يشير إلى سكتة قلبية. أما التحليل المنطقي الذي استحضره الطبيب وصديق العائلة ورفيق العمل النقابي مع المرحوم السيد عبد النبي داكور، فيؤكد أن السكتة القلبية سببها الكسر الذي وقع لذراع المرحوم. فعملية الجبر وشدّ الذراع

بالجبيرة والضمادة والرفادة قد حبست جريان الدم بشكل عادي، ما أتلف وظيفته ورجْعه إلى المعمل التحويلي الذي هو القلب. أشار إلى مصطلحات وألفاظ طبية وعلمية ومكونات بيولوجية وخصائص دموية متداخلة في تسبب ما وقع. وقد تحوّل الملف عند الأسرة النقابية إلى وفاة في ساحة المعركة النضالية.

هو الشهيد عبد النبي داكور، المناضل الذي لم يساوم طيلة مساره النضالي والنقابي والسياسي. ذاك الذي بقي على عهد النزاهة ونقاء الضمير. اغتنى الوصوليون والانهزاميون الراكعون على عتبات الذل. لم تجرؤ الذئاب على مساومته يوماً. وجدوا شخصيته دافعة للاحترام في عز التناقض والخصام، مانعة لما تبقى من ذرة ضمير حيّ ومن كرامة مفقودة في جوف الفؤاد الشارب للمرارة في وعيهم المنسي، من المحاولة مع من مثّل نموذجهم المفقود كخونة أو كعملاء. لم يمت الشهيد. حتى في تغسيله وتكفينه، حتى في وداعه الأخير قبل إغلاق التابوت، كان وجهه حيّا ومشعّا. كانت الابتسامة مرسومة ودالة على ثبات صلد وقّعه محيّاه. وكأن الموتى هم هؤلاء الأحياء الذين لم يقدروا ولم يجرؤوا على الصراخ وعلى النضال وعلى التعبير بالرأي ومواجهة كل طغيان.

صفاء، لم يسعفها كل هذا في ثبات. انهارت قواها وضعفت وهزلت. افترشت الصمت حكمة لمواجهة

الموقف. امتلكت الشجاعة والقوة لحظة الصدمة والتدخل والاستغاثة، لكنها الآن تلقت رسالة القدر: أرملة. ستسافر مع الصور والذكريات ومع صوته الحاضر في فؤادها. ستلتفت كل مرة ينفلت فيها صوته ونداؤه من اللازاوية في الروح أو في هذا الوجود المكاني والفضاء الذي تعيشه الآن. ستقيس الجنون وتتذوق مرارته وعذابه. عليها أن تستنجد بالأحياء لكي يساعدوها على المقاومة وعلى الاستسلام وقَبول القدر والتسليم به. طفلة جرفها تيار بحري فوق مركب يكاد ينكسر، تتمسك بعمود شراعه ذلك الصاري المقاوم في ميلان حاد. وما باليد حيلة. هي الحياة وما وهبتنا. لله ما أعطى ولله ما أخذ. هكذا تكون هذه الجملة الأخيرة مسكّنة جراحها. عساها تصمد.

(منه الدماء ومنها الصراخ. أيهما سيكون في ألم أكثر ؟)

أن يكون ذلك أسبوع الويلات، ذلك ما ولولت به السيدة غيتة. فاجأها سلوك ابنها عثمان. صدمت لكونها آخر من يعلم بما يقع. مراهَقة وقد زحفت على نفسية هشة، على صبي ما يزال طفلا صغيرا وحملا وديعا في نظر وقلب أمه.
عثمان الذي قضى تقريبا نهاية ذلك الأسبوع بمفرده أو مع صديقه وابن جيرانه عمر، والذي لم تجده خالته عيشة حين ولوجها للمنزل، بعد ذهاب غيتة مع صفاء في رحلة إلى الرباط، تاه في الطريق أو ضل هذه الطريق... لا تدري الأم بأي صفة أو فعل ستصف به ما وقع. لم يكن يوما ما مدمنا ولا منحرفا ولا شاذا.

عثمان الذي سهرت الليالي والأنهر على تربيته ورعايته. صاحبتْه في الذهاب والإياب بين المدرسة والمنزل، بين قاعة الرياضة والمعهد الموسيقي، مؤسسات الدروس الإضافية ومطاعم المدينة ومقاهيها... كانت صديقتَه وفاتحة سر تبرعمه وضحكاته وتعوّده على صوت الأنثى... كل مرة تختبره في منافسة شخصية بين جنسين، تدفعه لكي يقاوم صوتها وحيَل تغنجها... يوما ما سيحتاج هذا التدافع في محاورة أنثى ومرافقتها ومصاحبتها واختيارها شريكة حياته في مطاف ما...

كانت ترى فيه بديل كل الخيبات التي مرت منها. هان عليها أن تضحي بحياتها المتبقية عمرا وبأنوثتها التي أهملتها من أجل ابنها. هان عليها أن تكون خشنة لأنها أصبحت لا أنثى ولا ذكر. أصبحت جندرا بما استطاعت كسبه كثقافة حول الموضوع. ذلك الجنس الذي لا ينتمي للتقسيم الثقافي. ذلك الجنس الذي تجاوز الأدوار التقليدية لكي يصبح البديل المجتمعي داخل حياة معاصرة جردت الإنسان من طبيعته...

أن يرتمي بين عشية وضحاها في متاهة اللاعقل ويفقد صوابه ويجنّ في غفلة عن الجميع وعنها، ذلك ما صدم وعيها وجعلها تفقد صوابها تقريبا لولا تزاحم الصدمات بين وفاة السيد عبد النبي داكور ومشكل ابنها عثمان.

يحكي صديق عثمان وجاره عمر البوني عن تلك الليلة. كانت مخصصة لتجربة نوتات موسيقية جديدة. عزف على الغيثار يرافق إيقاعات مرسلة عبر الأنترنيت. جرّبا فيها موسيقى على اليوتوب تنبعث بألوان خضراء وصفراء وحمراء وزرقاء وما شاكلها واختلط بينها. تتفاعل في تشكيلها وامتدادها وهندساتها. الحركة في الصورة تتقاذف مع العزف الموسيقي الغريب الذي ينبعث هو الآخر من آلات متطورة تجهل نوعيتها. غالبا أورغات متطورة...
وضعا سماعات الستيريو الكبيرة على آذانهما. انطلقا في حركة رقص وهما جالسين: (كانت تعليمات الرقص تبدأ بهذا التوجيه. كان عثمان يضع الغيثار فوق ركبتيه في البداية... أطفأنا أنوار الغرفة وتركنا ضوءا باهتا آتيا من الممر ينفلت من فتحة الباب المواربة. لاحظت ضوء هاتفِي الذي يشع في ظلمة الغرفة.
ـ تكررت الرنات، مما اضطرني إلى إلقاء نظرة على هذا الاتصال المتكرر. كانت أسرتي تناديني لتناول وجبة العشاء. طقوس لابد من احترامها. نزلت الدور حتى المنزل ووجدت الأسرة وقد استعدت للخروج. ينتظرونني من أجل ذلك. كنا مدعوين لمناسبة عائلية. لم أجد الوقت للرجوع والاعتذار لعثمان. اتصل بي هو. كان ذلك بعد أكثر من ساعة تقريبا. فسّرت له ما وقع، قال لي بأنه سينادي على أسامة صديق الدراسة. نصحته بعدم استقباله

في المنزل، لكن شغف الموسيقى المشترك عندنا جميعا جعله لا يبالي بنصيحتي.
ـ سويعة ديال الموسيقى والضحك والسلام. لا مشكلة أخي عمر. بالصحة العراضة.
هذا ما دار بيننا قبل أن أجده للغد تائها وحافيا في جو بارد جدا، بعيدا عن العمارة. كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد الزوال).

التقرير الطبي الذي تلقته من المعالج لم يشفِ غليلها. كان مفعول الحبة الحمراء فعلا خطيرا على ذهنه. كيف وقع ذلك؟ التحليل المختبري لعينة دم عثمان وجد فيه الطبيب آثارا مستمرة لضغط دموي مرتفع. نبضات قلب منذرة بخطر يهدد الجسد وملامح عينين تثير مخاوف وقوع إتلاف في خلايا الدماغ.
يعلم الدكتور يوسف المرزوقي خطورة تناول بعض أنواع المخدرات. كان عليه أن يتأكد من نوعية ما تناوله عثمان. تمكّن من التوصل برواية شفوية من السيدة غيتة أخذتها من أسامة صديق عثمان. حاول ربط العوامل المؤدية إلى حالة الهذيان التي دخل فيها، وتلك الهلوسة وعدم التركيز في النظر... الدكتور يوسف يؤمن بخطورة البدء بعقاقير مضادة طبعا. ربما يصبح المريض ضعيفا في مواجهة المضاعفات التي تؤثر بها مثل هذه الأنواع من المخدرات. مخدر الكيف والحشيش يسهل زوال تأثيره بينما هذه تسري بين الخلايا ولا ندري نهاياتها.

أسامة بخلاف عثمان، يمتلك بنية جسدية أكثر قوة وصلابة. تدرج مع أنواع تدخين واستعمال. منذ سنوات وهو في هذه الحال. يكبر عثمان بثلاث سنوات، وبالتبع يكبره تجربة ومغامرات. دراسته معه ومع عمر وغيرهما بمؤسساتهم الخصوصية كانت بداية اختراق لمجموعة من الأفراد واستدراجهم لعالم المغامرات التي ألفها أسامة وغيره بين دروب وشوارع المدينة الجديدة حمرية. إذا سألته عن أحداث وغرائب المدينة وجدتَ عنده ألف حكاية وحكاية. عالم خاص بالشباب ولغة خاصة بهم، وطقوس وقاموس لا يعرف شيفراته سوى من انخرط منهم في تجاربه.

ما يتقاطعه عثمان مع أسامة هو حب الموسيقى. لكنه حب أقحمه وورّطه في تجربة لم يرِدْها ربما. هكذا يعلّل عمر ما وقع لصديقه عثمان ربما دسَّ له أسامة حبة أو اثنتين في قارورة مشروب غازي (ليمونادة). أَلِف استعمالها داخل سائل "البيبسي" وألف الدخول به إلى فضاء المؤسسة والانتشاء ببطء داخله. الكل يعلم هذا.

أن يكون عثمان قد وصل إلى هذا الحد من الإتلاف الذهني لجهازه العصبي فإن ذلك قد فسّره الطبيب من خلال ما سُمع بكونه قد تلقى في جهازه العصبي صدمة وصعقة قوية مثل مفعول صعقة كهربائية عالية. حالة الاستنفار كبيرة في دقات قلبه وضغطه وفشل حركاته وعدم صلابتها. الانهيار سريع الوقوع والاحتمال المفاجئ وارد. لذلك علينا أن نبقى هادئين ومراقبين. سنعتمد على تغذية

وسوائل كثيرة. سنبعده عن الأدخنة وعن الضجيج. فقد تلقى شحنة من الضجيج تكفي لتدمير الدماغ كل حين.
استشار الطبيب يوسف المرزوقي في الهاتف بعض زملائه. كانت السيدة غيتة جالسة وجامدة، لا يعلم أحد غرقها الجديد. لا يعلم أحد ما تؤجّله لانهيارها الخاص ولرعبها وللفوبيا التي تسكنها. كأنها دولة تقاطرت عليها تحالفات الدول في حرب لن تنتهي إلا بتدميرها واستهدافها رمادا لدخان البارود المشتعل والمتراقص بجسدها وكيانها.
(ـ نعم هناك حديث عن استعمال الموسيقى و(كاسْك) ستيريو كبير ورقص معها.)
ساد حواره صمت مطوَّل. لم تعرف السيدة غيتة ما يتلقاه ككلام عبر سماعة الهاتف. لم تعرف بعد جملته هذه أي تعليق هو موجود أو تحليل أو تقرير.
بقي الدكتور يوسف في بدلته البيضاء ورأسه الأشيب ونظارتيه المنحنيتين مع بصره فوق مذكرته يسجل فيها بقلمه بعض الملاحظات أو يخط خطوطا لا معنى لها سوى تركيز ربما على ما يسمع.
ـ طيب شكرا لك دكتوري العزيز.
وضع السماعة وعاد لرسم ابتسامة باردة لكنها مطمئنة وهو ينظر إلى السيدة الجالسة أمامه. وكأنه يراها لأول مرة. لكن ما رآه أول مرة نطقه تعجبا:
ـ عجيب أمر هؤلاء الشباب. يعيشون في مرحلة خطرة فعلا. الأعراض الموجودة عند عثمان مختلطة. وأكيد أن

استعمال الأنترنيت بشكل كبير يوميا قد أثر على حواسه وتركيز دماغه. روايتك ورواية أصدقائه تشيران إلى مخدرات إلكترونية حاضرة كذلك. على العموم لابد من مرحلة نقاهة تامة. أنصحك بمكان خالٍ من المؤثرات المسبّبة لحالة عثمان قبل أن يرجع إلى الدراسة. سأعطيه أسبوعين كشهادة طبية يتابع فيها العلاج ويستريح.
ـ أحتاج أنا كذلك إلى شهادة طبية.
ـ ما هي الدواعي أستاذة غيتة؟
ـ أشعر بإرهاق شخصي منذ مدة وأنا أتحمل مسؤولية تربية عثمان بمفردي في غياب أب يشرف على تربيته. كما أن حالة وفاة لزوج صديقتي أثّرت على نفسيتي كثيرا. المصائب مجتمعة.

تنهار في موجة بكاء سُمِع هديرها الموجع وتصاعدت شهقاته. ناولها الطبيب مناديل ورقية ودعاها لتهدئة أعصابها لأن كل هذا ليس في مصلحتها ولا مصلحة ابنها عثمان. بالعكس يحتاج منها عثمان لكي تكون قوية وثابتة وهادئة بجانبه. كتب لها دواء مهدئا ومنعشا ومقويا بفيتامينات. مسكّن ساعدها على النوم مساءً هي وابنها عثمان. كلٌّ بوصفته الطبية، كلٌّ بفاتورته في الصيدلية.
ارتأت أن تقضي الأسبوعين في مدينة إيموزار كندر.
لكن المفاجأة هي مجيء السيد عبد السلام الهدفي لكي يزيد من هول ما وقع بتصرفات جديدة وغريبة. ربما ألفتها السيدة غيتة، لكن توقيتها لم يكن مناسبا. ربما وقوفه

المستفز والصارخ أمام باب العمارة والجيران يطلون أو المارة يلتفتون ويقفون لمتابعةٍ فضولية واستراق قصة للغيبة والنميمة المنتشرة، ربما كل هذا استشعرها الخطر الذي سيهدم كل ما تحتاجه في مرحلة النقاهة لها ولابنها.
لم يكن يتوقع أن ترفع امرأة سكينا في وجه رجل. لم يكن يتوقع أن تخرج الشرارة بصوت حادّ وجدية عازمة على المضي فيما تنذر به هذا الواقف لمحاكمتها والاستخفاف بها وبكرامتها وتهديدها بأخذ الابن منها.
إلا الابن. إلا هذه اللحظة. ستمضي في ما تقوله وتنفذه.
لم يجد السيد عبد السلام من رد سوى الابتعاد بخطوات دون التخلي عن ألفاظه وسبابه مع شعور بخوف وتعرق جبينه معه. انسحب من أمام بصرها وباب العمارة. اتخذ مقعده في سيارته التي لم تكن سوى تلك التي اشترتها السيد غيتة من مالها الخاص بعد أن اقترضت دينا وسلّمتْه له لاقتنائها. شغّل المحرك وضغط على سرعة مجنونة انطلقت بها العجلات تاركة وراءها دخانا أبيض يزيد نفسيتها اشتعالا واحتراقا. كانت تتمنى أن تطعن ذلك السكين الذي بين يديها في جسده طعنات تمزق كل الجروح التي تعانيها، في جسد هذا الوحش الغريب. منه الدماء ومنها الصراخ. أيهما سيكون في ألم أكثر ؟

(زغرودة الوجع، ورقصة الألم)

كان أسبوعا مريرا وقد عانت فيه غيتة من كل لون مذاقا جديدا. مذاق المرض والخوف من فقدان فلذة كبدها، شجرة تجتثها ريح حمقاء، ترقص للتيه والعبث والفراغ. مذاق الموت الذي خطف السيد عبد النبي داكور والذي رسم صورة السياسة وفضحها. كيف للإنسان وقد خدم وظيفته وشعبه بتفانٍ ودفاع عن حقوق وكرامة سينال مكافأة مقابلة

ونقيضة؟ كيف لصديقة وهبها لها القدر لكي تكون أختها الثقافية والمساندة في المحن وقد شردها الكون من ظل شجرة مورفة كانت تحميها من لهيب هذا الكون الحارق. والآخر الذي بدأت تجده غصة ريق في حلقها كل صباح. بدأت تشعر باختناق القصبة الهوائية. أمعاء تلفظ وحنجرة تختمر برائحة غريبة. يختلط الحلم الكابوس مع هذه الإفرازات وهذه الأعراض. تأتيها صورة السيدة سعاد. تلك الكفيفة التي تجلس مدعمة أعمدة شارع أصبح تراثا إنسانيا يجب الحفاظ عليه كعمران وهندسة. أمرأة ترافعها كل ليلة. تقارن حالها مع حالها. تفرض عليها أرقا طويلا قبل أن ترخّص لها في غفوة ما.

ـ ها هو حالي. لا أرى ببصري، لكن عقلي يرى الحقيقة التي لا يراها من وهبهم الله حاسة البصر. أرى كل شيء عاريا ومنطقا فاضحا. أعمدة الشارع سجّلت معي توقيع الخطوات عند البشر. بطاقة تعريفهم أحذيتهم الطارقة فوق الأرض. ممرات الشارع توقيع على عدد الضحايا وأنواعهم. هؤلاء الذين يترجمون الأزمة الحقيقية للبلاد. يؤكدون عقم السياسة والسياسيين. الحلول عندي كثيرة، رغم أنني لم أجد حلا واحدا لنفسي ولأسرتي التي أنشأتها داخل كانون جمر أحقق به معجزة الحياة داخل نار أجعلها بردا وسلاما حينما أريد أن أستريح من احتراقي بجحيم هذا الواقع.

أما أنت يا غيتة. طفلة وقد رأت النور. أستاذة وقد وقفت مدرّسة. أم وقد رزقت بابن. امرأة تمتلكين كل نعم

ضرورية، وتشتكين؟ ما قيمة ما تفتقدينه؟ زوج غير مؤهل. معقّد وقد استرحت منه. فقر وقد انفلتّ منه. بدن وقد حافظت على سلامته. حواس وقد رُزقت بها. احمدي الله وانظري لحالي ولا تستغربي منه، فقد امتلكت أسلحة مواجهته. أعلم أن حضوري وصورتي أمام رجال البرلمان والحكومة وهم يمرون مفتخرين في هذا الشارع أو يلجون القبة المخصصة لهم فيه تعني الكثير لي، تجعلهم لا ينفلتون من وخز ضمير سيوقظهم للمحاكمة في الليالي الطويلة.

لا تقلقي إذا ناديتك في عز الليل. أريدك أن تكوني امرأة قوية وصلبة. شجرة الغابة المعمرة والسامقة، القوية والواقفة. لا تهزك رياح ولا تقتلعك عواصف. البرق سلاحك لكي تحرقي به كل الأوراق المهشمة بلون الخريفْ، أوقدي نارك الخاصة لرقصة التحدي. الموت للضعفاء.

شعورك بالذنب سبب محنتك. لماذا تنادين عليّ في مرارة أرقك؟ لماذا تجعلينني مرآة لمعاناتك؟ تريدين أن تعكسي آلام العالم في جسدك؟ لا أفضّل أن أكون شريكتك في كل هذا. سأتركك في أرقك ولتتحملي مسؤولية اختيارك وضعفك. لو تعلمين أنني في عز الضربات التي أتلقاها إما شتما أو عصا نازلة على هذا الجسد الهزيل القوى، كنت أغني أم كلثوم وأضمد بها جراح (الآه) التي تصدر عني وأنا مرغمة. ليست مازوشيا مرَضية. لا. هذه ملحمة درامية وقد حوّلتُها إلى احتفالية لي. أغنية ورقصة

وصراخا. لم تجربي أنت رقصة الألم. أن تكون بإيقاع الضربات والطعنات والشتائم وصوت الصفارات والمحركات ووقع الحوافر والأحذية المطاطية والأوامر الرمادية... هل أزيدك في وصف ملحمتي أم كفاك هذا؟ أصبحت مستعدة لها كلما أكملت شروط أدائها. تعلمين حينما تستعد قطعان الجواميس لعبور النهر أو الاستسقاء منه. كيف تتجيّش وكيف تندفع وكيف تُقْدِم على الخطوة الأولى ثم الثانية. الضحية الأولى ثم الثانية. وهكذا توالي مسلسل متسلسل... تلك أنفاسي تجيّشني للمواجهة ولرقصة الألم وتدعوني للاستعداد. ذلك توقيعي على الصمود والقدرة على الاستمرار فيه. أصبح تحدي الحياة ورهانها هو هذا الصمود وعدم الاستسلام. لم يعُدْ همّي هو وظيفة. حتى المجتمع أُحمّله مسؤولية اللاإنسانية. وتصوّري ما أسمع من نعوت وحشية، ورغم ذلك حينما أريد الخلود إلى النوم أغني أم كلثوم:

ـ أما زالت هذه العورة هنا؟

ـ حتى العمي يريدون العمل. ما بالنا نحن الذين لم نجده.

ـ البلاء المسلطيا لطيف. ما بقي سوى العمي لكي يصبحوا ذوي شأن وعمل.

أزيدك أو كفاك ما تسمعينه الآن؟ لمن سأنتمي أنا سعاد الجهني؟ لا يشرّفني أي انتماء لو كان في علمك. أنتمي إلى مرجعيات وقوانين ورزمة مجموعات حقوقية. أنتمي إلى نبضات قلوب تشعر بالرأفة والرحمة. أنتمي إلى أجنحة مكسرة تحاول أن تحلّق بي بعيدا عن السقوط الذي

ينتظره ذئب جائع، أصبح مهيّأ للافتراس والهضم بلعابه السائل وعوائه...
أنتمي لهذا السقوط الذي يصوّرني في مشهده الدرامي ورغم ذلك أحتفل وأغني أم كلثوم. الصوت الوحيد الذي أعتبره يستحق أن يستمر في الغناء لمدة أطول لأنني أنا الوحيدة التي أستطيع الاستمرار في رقصة الألم وزغرودة الوجع وأستمر في الحياة. سأزورك كل ليلة إذا شئت. ولكنني أنصحك بإبعادي عنك ما استطعت، فلن تقدري على إيقاع موسيقايَ فتيلا. أُسلّمك للقدر الذي ترسمينه بقوتك وضعفك. مع السلامة.
إلى مَن ستنتمي السيد غيتة؟ لليل أم للنهار؟ أيّ ضيوف هم أفضل؟ ابنها الذي هددته الأخطار أم هذه السيدة سعاد التي حلّت كشبح في ليلها البهيم وسحقت جفونها بزئبق لئيم؟ حتى من صديقتها صفاء فإنها لا تعلم ما يقع ولا بقصة هؤلاء الضيوف. تراها جالسة صامتة وحزينة. قد تتكلم بعينيها. قد تجيب بحركات صغيرة بأطرافها ورأسها. يكفيها أنها هنا. شجرة تسند الغابة وترد عليها صهد الحريق الذي يشِم جلدها وجسدها وأحشاءها.
كان الفرار لمدينة إموزار كندر. ربما البرد القارس هناك وثلوج القمم ستهبها صلابة وقدرة على المقاومة. ربما ستعالجها وتخفف عنها كل هذه المعاناة.

يكون الجو قارسا في شهر يناير. تتخذ الجبال حلّتها البيضاء. هذه السنة كانت بداية فصل الشتاء حاملة لتساقطات مطرية وثلجية مهمة. عرفت خلالها المدينة الأطلسية تجديد زينتها لعرس الليالي التي تزوجت بمدفأة الحطب، زادُ من لا زاد له. هكذا راجعت عيشة العبارة مع أختها غيتة. الأعواد قبل الدقيق في هذه الجبال. طبعا لن تقارنا مع توغل الموضوع كإشكالية داخل غابات وقمم الجبال، فالمشكل يصبح عويصا ومنذرا بالخطر، خصوصا وأنه كم من شخص يعاني مع قساوة البرد والثلوح. إنما، اللحظة جعلت تركيز الثلاثة في ليلتهم الأولى داخل المنزل المكترى وفي ضيافة عيشة الآن، على هذه المدفأة التي تتوسط الغرفة التي تتخذ في طولها مقاسا أكثر من عرضها. تكاد تجمع مستلزمات الجلسة والنوم داخلها. أفرشتها الستة التي تحتضنها طاولات خشبية. وسائدها الحمراء المربعة والمزينة بأشكال متوازية الأطراف، والتي تتخلّلها وسائد أصغر حجما من

صوف ناعم وحواشي منفوشة ومربعات تلمع داخلها مادة "الموزون" المعدنية الرقيقة جدا، الفضية والمنعكسة مع أنوار الكهرباء وحمرة النار وظلال الأشياء والأشخاص. في مدخل الغرفة وُضعت قنينة غاز تحمل ثلاثة أفرنة، صينية شاي بمعداتها ومستلزماتها. دولاب صغير من بابين وقد احتوى على بعض الأواني وعلب قطاني وتوابل وغيرها. أما الأغطية فهي بالوفرة التي تكفي، مرتبة عموديا في زاوية داخلية من الغرفة.

لقد أصبح مركز الاهتمام هو جاذبية المدفأة إذن. كم هو جميل أن يجد الإنسان ملاذا وتدفئة. تكون النار حاملة وحالمة في حنين لحكايات تروى وتغذي حميمية الجماعة الجالسة حولها. كما يكون البرد منتظرا غير بعيد لتعرية الواقع من كل هذا الحنين. تناقض يعكس الوجود كعملة بوجهين: الحياة والموت، التدفئة المنعشة أو البرد القارس، وتصبج العيون المتقابلة في الجلسة قِبلة المتحدث وشوقه في التواصل. ترتسم الابتسامات وتُطوى صفحات يوم أو أيام من الاستحضار. تشفع اللحظة للذاكرة في نسيان مشاقٍّ والتمتع بعناصر احتفاليتها الجميلة. هكذا كانت الليلة الأولى في شهر يناير هذا. مضت أيام ناهزت الأسبوع وزيادة قبل أن يكون هذا القرار محسوما في الالتحاف بالجبال برنسا ينفض الألم والمرض والذاكرة الموشومة والمجروحة.

يُسمع صوت محرك السيارات وقد استرجع نبضه او استرخى تموجا في الغياب. قربُ المنزل من فندق شهرزاد

يوقّع لمثل هذه الأصوات بالليل أكثر من النهار. من المحتمل أن هؤلاء الواصلين هم من زوار ثلج الجبل وفستانه الأبيض. كل الخلائق تبحث عن الماء، باستثناء خلائق الجبال في فصل الشتاء، فإنها تبحث عن النار. فمن سيشفع للحيوانات لكي تستفيد من دفء إلى جانب الإنسان؟ كان غودان (الجميل باللغة الأمازيغية)، يحمل رسالة الاختبار لمثل هذه القيم. هرٌّ وسفير بين مرافق الحي والشارع والزنقة. آثار مغامراته يحملها بعض الأحيان توقيعا على وبره وجسده. قد تلومه عيشة حينما يحل ضيفا عليها، لكنه قد يعتبر لومها مجرد إطراء داخل ضرورة عيشه اليومي وتوقيع فحولته وقدرته على التأقلم والاستمرار في الوجود والحفاظ على النوع.
كل هذا يرسمه غودان ابتسامة ومواء وهو يتمسح بتلابيبها ويتغزل مستعطفا بذكاء عينيه. تُراها تتخيّلُه ذكرا فتُسقط عليه حمولتها بحسب اللحظة والتي قد تحملها غيظا أو اشتياقا لحضور الذكر؟ تُراهما أنثيين في حضرة ذكرين؟ أكيد الحضور موقّع لعثمان كما لغودان. لكنه حضور ائتمان وليس حضور اشتياق غريزي. تذوب كل حسرة وتحضر كل نعومة توقّع لهذا الصبر الوجودي الأنثوي. تحضر الحضانة التي سجلّت للأنثى خلودها منذ بدايات المغارات الأولى. تحضر آفاق المستقبل الذي يجعلها هي الأم وهي الحاضنة والآوية.
كل هذا يحضر. لكن سخرية القدر تجعل الضحك مفتاح قياس اللحظة والزمن. تذهب عيشة في الصباح إلى الدكان

القريب من المنزل والمجاور لمقهى الحديقة. تقتني لوازم الفطور قبل أن تفكّر في زيارة السوق المركزي. يلفت انتباه التاجر (حمّو) لابتسامتها الخفيفة وهي تنصرف حين حديثه مع زبون مستعجل للانصراف كذلك. في يده علبة سجائر وأوراق نظافة اقتناها. توصيته وقد ترك أداء نقديا مسبقا على الجرائد التي لم تصل بعد مع شركة التوزيع. ثلاثة عناوين ذكرها. لكنّه ذكّر صاحب الدكان ببعثها للموظف المكلف بالاستقبال في الفندق الذي يقيم فيه في زاوية من الشارع.

(ـ قد نكون محظوظين إذا وصلت في الساعة العاشرة. مَنْ أقول لأصحاب الفندق؟ يسأله التاجر.

ـ قُلْ لهم السيد غودان من فضلك. وشكرا مسبقا.)

ربما بحدسه ابتسم للتسمية كما لضحكة عيشة. فالهر غودان صديق الجميع في هذه الزنقة. إنما سيكون لإخبار عثمان وغيتة بمستملحة هذا الصباح وقع جميل على مائدة الفطور. وذلك ما وقع فعلا. لكن ما سيقع سيزيد فضول معرفة وتواصل وتتبع لأحداث اليوميّ هنا بمدينة الماء والغابة والقرميد الأحمر.

بدت على عثمان ملامح استرجاع نضارة جديدة. رغم أن خدّيه ما زالا يحملان آثار انتفاخ غير عادي. جفونه تسمها طبقة منتثنية صغيرة. الشفة السفلى لم تعد مسترخية بالشكل الذي كانت عليه قبل خمسة أيام وزيادة. لكن القدرة على الحركة بالمعتاد والحيوي كما الشباب وكما عثمان المألوف، يسِمها بعض التثاقل. وكما قال الطبيب المعالج في عيادته:

(- يحتاج إلى أيام مركزة من أجل التعافي. أبعدوه عن الضجيج وأشعة الآلات السمعية البصرية وانعكاس الأنوار القوي. لا تجعلوه يتناول الكثير من المنبهات سواء من الليمونادة أو الشاي أو البن. لن يكون له هذا الدواء الموصوف سوى بالليل حتى تسترخي الشرايين ويهدأ الجهاز العصبي من صعقاته الكهربائية المباغتة. وأظن أن راحة مرحلية ستكون ضرورية).

ـ ما رأيكم أن نتمشى حتى زاوية الشارع ثم نعود لوسط المدينة لاقتناء ما نحتاجه؟
استحسن الجميع الرأي. اتخذوا خطواتهم على مدار فندق الملكي، ثم عرجوا شمالا في مقابلة فتحة الأشجار والغاب، حتى إذا قابلتهم خضرة بارضة لامعة تعترش كسوة ندفية بيضاء وتحتفل باستقبال أشعة شمس بدأت تذوب بخارا يتعطش له سحاب السماء، كان للعيون سحر الالتقاط لجماليةِ مشهدٍ بديع. ارتسمت الابتسامات، والأهم، ذلك الفرح الذي يبلسم الشعور ويغسله من تقاسيم غضب أو قلق. ربما كل الخلائق تعيشه رومانسية، خصوصا إذا ما رافقته هذه الأشعة المدفئة لمسام الجسد.
أطال عثمان التحاف واغتسال عينيه باللوحة الطبيعية. سبقهما خطوات قليلة ليختلِي في حضرتهما بهذا الانجذاب. كانت تلك تباشير خير وفأل استحسان وأمل تشافٍ سريع لوضعيته الصحية.
ـ ماذا تقترحان؟ نرجع من جهة أوطيل روايال أو نستمر حتى نخرج جهة السوق من جهة أوطيل شهرزاد؟
ـ يا عيشة، الطرق كلها تؤدي إلى السوق المركزي. تجيبها غيتة مبتسمة وزارعة بذور المرح في الحوار.
ـ الطريق التي جاءت بنا إلى هنا ما تذهب بنا إلى هناك.
يعلّق عثمان في أولى خرجاته الكلامية الرائعة في هذا الصباح.
ـ أنا مع رأي عثمان. تسارع عيشة للموافقة.

ـ وأنا معكما أنتما الاثنين.
تبشر كلمات غيتة برغبة في حضنهما لكنها تكتفي بمسك أيديهما، عثمان من جهة اليمين وعيشة من جهة اليسار. يتخذون عرض الزنقة الخالية من المرور في خطواتهم المتراقصة بإيقاع غير معزوف سوى جهة القلب لكل واحد منهم. أكيد أن نبضاتهم هم الثلاثة كانت خير أوركيسترا مرافقة.
ـ لقد انصرف غودان باكرا هذا الصباح. أين تُراه الآن؟ يسأل عثمان خالته عيشة.
ـ ربما ذهب لتفقد أحوال مملكته بالجوار. شخصيته معروفة ومحبوبة من طرف الجميع.
تستمر البسمات وتذوب داخلها شجون غيتة وتطمر في دواخلها ما لا تريد أن تنساه كمرافعة لما فقدته في هذا الوجود وهذه الحياة. نظراتها للاثنين تخفي ذلك. لكنها تسترق مرآة الداخل ما استطاعته خلسة وقدَرا يلبسه وهي مكرهة عليه.

يمر الثلاثة فوق رصيف فندق شهرزاد. تفادوا جهة محطة البنزين التي بدأت حركتها بملء خزان السيارات المتعطشة لمشط طرق الإسفلت المنفلتة من (جريحة) وصقيع الصباح الجليدي. تكون الآلات في انتظار البشر من أجل الاشتغال اليومي طبعا. يلاحظ عثمان افتراش الهر (غودان) لكرسي أمامي على الرصيف بمقهى الفندق. يناديه:

ـ غودان، غودان !
يرفع رأسه ناظرا لجهة الصوت دون أن يغيّر وضعية تمدده فوق الكرسي البلاستيكي. بعينيه العسليتين يرسم ابتسامة تنحني لها رموشه. استحمامه بأشعة الشمس الصباحية طقس مقدس عنده. يحيّيه الرجل الجالس بالكرسي المجاور لغودان مبديا ابتسامة مستغربة ومرحّبة بهذا النداء. تبتسم عيشة في اندهاش فيما تبادل السيد الجالس ابتسامة يرد بها التحية. وبقيت غيتة خارج التغطية لا تفهم ما يقع. احتمال أن يكون من سكان المدينة ومعارفها، نعم. لكن نداء عثمان جعل اختلاط الفهم عليها حاصلا ومورّطا. هل ترد التحية أم لا؟
سارع الثلاثة في إيقاع جماعي إلى عبور الشارع أمام الجالسيْن بالمقهى: غودان الهر وغودان الإنسان.
شرحت الأخت لأختها ما وقع. بدت ضحكاتهما المتبادلة منعشة لحظة استقبال السوق المركزي لحضورهما فيه وبداية تسوّقهما لما يحتاجه الثلاثة. فيما بقيت عينا غودان الإنسان متابعتان لخطو المجموعة ويده تمسد على وبر الهر (غودان) الذي تدلل واسترخى بأطرافه الأربعة فوق الكرسي. وكانت الشمس المتوهجة شاهدة على هذا الاستحمام والانسجام.

حين عودة الثلاثة من السوق المركزي، وجدوا السيد غودان وقد اتخذ من مسار سكنى السيدة عيشة ممشى له يتأمل من خلاله البنايات والأشجار. وفي غريب الصدف والملاحظات أن كان الهر غودان يمشي متمايلا بجانبه. يخترق الخطوات بين رجلي السيد غودان وقد يتمسح بحذائه البني اللون والمغطى بوبر يستدير بمحاذاة ركبتيه.

مشهد أعاد للثلاثة الفضول والاستغراب فعلا. حمّس عثمان لكي ينادي على الهر من جديد رغم محاولة أمه ثنيه عن ذلك، ما اضطر السيد غودان للتوقف والاستدارة جهة الصوت المنادي. كان الحرج عند السيدتين في تفسير اللُبس وتبيان ظروف الموقف ومصادفاته. ابتسم السيد غودان لمحاولتهما واعتبر المسألة عادية. كما استسمح في

بعض أسئلة يريد طرحها عليهم. بادرت السيدة عيشة إلى الترحاب بها وطلب تفضله بها كذلك.
ـ سّنتْ تيشلحيت؟
ـ أجابته عيشة بالإيجاب، فيما ابتسمت غيتة وعبّرت عن توسّطها في ذلك. بينما بقي عثمان منتظرا ترجمة ما بدأ من حوار باللغة الأمازيغية. استغرق انتظاره تأمل شخص السيد غودان ولباسه الصوفي وطاقيته المنسدلة والمغطية لأذنيه. لاحظ تشابه عينيه العسليتين مع عيني الهر ولون وبره المزركش البني الفاتح والمائل إلى العسلي المذهب، شكله المربوع وصوته الهادئ والرقيق والذي قد لا يترجم بنيته الجسدية المكتنزة، ولا حتى خدّيه المنتفختين كذلك.
تساءل عثمان في ذهنه إن كان بالإمكان وجود قرابات بين الحيوان والإنسان تنحدر من الحكايات والتحولات التي تتضمنها أسرارها وعجائبها. استعان بما تذكره ذهنه منها. سمع عن الفتاة التي تحولت إلى حمامة أو طائر مغرد فوق شجرة، وعن غيرها. لكنه لم يسمع يوما قصة هر أو رجل تبادلا هذا التحول. ربما أحدهما جنّي. ربما يكون هذا المدعي إنسانيته هو الجنّي. لا يعرفه ولم يرَه من قبل. لكن الهر مألوف وصديق له ولسكان الحي كما لخالته عيشة.
أجّل التعليق بهذه الملاحظات حينما تحوّل الحوار بين الثلاثة الكبار ليكون باللغة العربية والدارجة المغربية العربية. سألته السيدة غيتة:
ـ هل أنت من أبناء المدينة؟

كان جواب السيد غودان بداية تواصل جديد فيه تقاطع ناسب الطرفين في استمرار هذا الحوار وقد اتخذا خطوات متجاورة لبضعة أمتار قبل أن يقفا لمتابعته أمام منزل السيدة عيشة. وفيما أخذت عيشة أكياس التسوق إلى داخل المنزل بقي الثلاثة ورابعهم الهر في حلقة متفاعلة بالكلام والابتسامات وحركية الهر بين أرجل الواقفين.

يمتلك السيد غودان صوتا رقيقا فعلا، لكنه يشبع في رنته تلك الأصوات الإعلامية التي تستدعي الصمت حين نطقها. حينما يكون الصوت بعض الأحيان حاملا إلى حدس امتلاك صاحبه لكل الكلام المرجوّ سماعه والفكرة المنتظرة في البوح بها. وهذا ما حصل مع عثمان وأمه غيتة رغم أن الأم هي التي بقيت مشدودة لموضوع الحوار. أعجبها وأدهشها أن تجد في توقيت فصل الشتاء وداخل المدينة العزيزة على قلبها إيموزار من يهتم باللغة الأمازيغية دراسة وبالثقافة المحلية تدوينا وتحليلا. ألهب كل هذا وكذلك ما سبق لها أن اهتمت به كدراسات أولية مؤخّرا، فضولها. دراسات حول اللغة والثقافة الأمازيغية. آخرها محاضرة استفزت جهلها ودعتها للاهتمام أكثر بالموروث الروحي والوجداني والتاريخي للثقافة الأمازيغية.

فصل الشتاء هو فصل هدوء الجل وفصل الاستماع إلى صوت الطبيعة بشكل أجمل. واهتمام السيد غودان هو

دراسة ميدانية يقوم بها في المنطقة. دراسة لمكونات الكلمة والجملة، ولأصوات الكلام وكيفية النطق ولخصائص المقاطع وترتيب الأصوات. في نفس الوقت دراسة للرموز المرتبطة باللغة الأمازيغية وبالأساس نوعية النقوش التي ما تزال مستعملة في الوشم أو تزيين الزرابي وحتى في الحفر فوق جذع الأشجار والجدران... إنه تتبع لعفوي الكلام والنقش وما يمكن استنتاجه معه.

هكذا اندهشت وانخرطت أستاذة مادة الاجتماعيات في هذا النقاش. أرادت أن ترافِع لجرح التاريخ الذي ظلم لغتها الأم وثقافتها التي تنتمي إليها هوية ووجدانا. ثقافة وانتماء أهانها البعض وبالخصوص من تزوجت به وأنجبت معه برعم استمرار للحياة في هذه البلاد المشتركة. جرحُ فؤادِها غرس نبرته في صوتها الذي أصبح ينفلت إلى رقة تنم عن أنين أو صوت مبحوح وفاقد للقدرة على النطق بشكل سليم. ربما احتاجت إلى علم نفس الصوتيات لكي تعالج ذلك. هكذا فكّرت في مناسبة سابقة. إنما هذه اللحظة كانت الرحلة مع الجرح داخل هذا الحوار. ساءلت نفسها: هل يكون لصوت السيد غودان سحر أنثروبولوجي يمسك بأجراس فؤادها؟

لكْنته المتثاقلة في النطق والتي تطبع تعبيره باللغة العربية ودارجتها. سلاسة استعماله للغة الأمازيغية الشلحة وطرب صوته حين النطق بها. لغته الفرنسية وتأثير اللهجة الأطلسية عليها. كلها علامات شجرة قائمة لوهب الحياة في هذا الحوار الجميل. كل هذا جعل عثمان كذلك

يتابع باندهاش واكتشاف هذه الشخصية الغريبة. كيف لشخص درس بأوربا وبالخصوص بفرنسا، ثم استقر بسويسرا ودرّس في جامعتها وكلياتها، أن يتفرّغ في فصل شتاء لتتبع وتجميع مثل هذا النوع من الدراسات. ذلك ما جعله يقارن بين مهمته كتلميذ في دراسة مقرر الباكلوريا علوم وهذا البحر من الدراسة الغريب عن تخصصه. بينما أمه غيتة أبحرت في ما تمتلكه من معلومات لكي تستعرضها مع السيد غودان وتقارنها مع ما يعلمه أو يحتاج لمعرفته. في نهاية المطاف كان الغرض هو كسب محبة مضاعفة للغة الأمازيغية.

ـ أهتم الآن بتسجيل وتدوين صوتيات طبيعية في اللغة. ما نسميه بالأوناموتوبّي onomatopée، تلك المحاكاة الصوتية التي تسجّل لقدم اللغة والإنسان فوق هذه الأرض. تعلمين أن منطقة إيموزار كندر هي منطقة جبلية وتمتلك مغارات كثيرة. وهذا العمق يعطيها حدسا في الحفاظ على مخزون تراثي كبير. فإلى جانب الحفريات هناك منطوق اللسان في التعبير والتلاحم مع الطبيعة وأصواتها.

اتخذ النقاش ذلك العمق بين الطرفين فيما التجأ عثمان إلى اللعب مع الهر واستدراجه لحيَل جديدة ينفلتا بها معه من مناقشة كبيرة على عقليهما وإدراكهما. يحاول عثمان أن يكتشف صلة وصل بين تخمينه حول جنية أو إنسية غودان وبين حركاته الحيوانية. التفت المتحاوران كل مرة إلى حركات اللعب والجري المحيطة بهما وهما يزاوجان بين العمليتين. شكرت السيدة غيتة محاوِرَها واعتذرت عن

الاستمرار، فيما بادلها نفس الأدب في الرد والاعتذار والشكر.
ـ نتمنى أن نتابع هذا الحوار فيما بعد.
ـ بكل فرح. أجابها السيد غودان. بادلها التحية وأرسل أخرى من بعيد إلى عثمان وهو متخذ لخطوات تقوده إلى منحدر الجبل المقابل والغابة المجاورة.
دخل الاثنان إلى المنزل مستقبِلين تعليق عيشة:
ـ كدتما تقضيان وقت الغداء في الشارع. كنت سأبعث لكما أو آتيكما وانتما مع الضيف بالطاجين.
ابتسما لتعليقها وأضافت غيتة:
ـ وهل حُضِّر الطاجين؟ لنتناوله الآن.
ـ هه. لو كان كفتة لتم ذلك. لكنه لحم غنمي يحتاج إلى ساعة قبل أن يصبح جاهزا للأكل. علّقت أختها عيشة وهي تناولها طبق برتقال لتضعه فوق المائدة.

" هناك عشق مثل العبادة. أمارسه بشغف كبير.
وتحقيقه سعادة خاصة طبعا "

جلس عثمان متابعا أخبار الرياضة بعد نشرة الظهيرة على القناة الثانية. بدأ المطبخ يبعث بشهي رائحة الطعام. بعض أشعة شمس تخترق بدفئها نافذة الغرفة المطلة على حديقة صغيرة داخل هذا المنزل المشكّل من دور تحتي وطابق واحد. تمتلك الجهة الخلفية له فتحة غربية تناسب اتجاه الشمس وتكون الجلسة مناسبة الاستحمام بها في هذا الوقت من النهار. يسمع صوت أمه آت مع خطواتها. لا يدري أهو كلام موجّه له أمْ لخالته أمْ لهما هما الإثنين:
ـ علينا أن نتناول الطعام بسرعة لكي نخرج في جولة خفيفة داخل المدينة. تعلمان أن توقيت النهار قصير جدا والليل جامد ببرودته.
ـ إيموزار على صفحة الهاتف وأخبار طقسها 16 درجة بالنهار، وبالليل درجتان. لكن الأسبوع المقبِل سيكون أكثر

برودة: ناقص أربعة ابتداء من ليلة السبت حتى ما تبقى من الأسبوع. يبدو أننا سنفترش الحطب لكي ننام ليلا.
تضحك غيتة لتعليق عثمان وخوفه من الآتي طقسا ودرجة حرارة. على الأقل تلمس انشغالا جديدا وانتعاشا روحيا في حواره وكلامه. لم يعد ذلك الشرود الذهني الذي يمتلكه لبعض الوقت كما في ما مضى من الأيام التي قضياها هنا بإيموزار كندر.
...
بعد لقاء اليوم بالسيد موحا غودان، كان لعثمان لقاء آخر معه مطوّلا وفريدا. علّمه السيد غودان خلاله مجموعة من الكلمات الأمازيغية التي كان يجهلها. على العموم فعثمان لا يعرف إلا القليل مما يحتاجه في التواصل مع خالته، وحتى أمه فإنه لا يتخاطب معها سوى باللغة العربية الدارجة وبعض الجمل والكلمات بالفرنسية.
وسيكون لقاء جديد آخر بينهما، لكن هذه المرة ستحضر رفقةُ غيتة وعيشة. ستأخذهم الجولة باتجاه الطريق الوطنية رقم 8 حتى مطعم ومقهى الأطلس. مسافة مناسبة للمشي استأنس فيها الأربعة بحوار مفتوح وطليق وشيّق. فقط أن الهر غودان غاب عن الجماعة، لكنه كان حاضرا في بعض حوار حوله.
وكان الحديث ذا شجون. فتح كلٌّ ملَفَّه الشخصي بعفوية. استفسر الآخر بلطافة ولباقة، وكان السيد غودان أكثر تموقعا في قفص تعريف بشخصه وانشغالاته الحياتية. ست وخمسون سنة. أب لطفلين ومطلق من سيدة

سويسرية. هاجر مبكّرا إلى أوربا بعد أن حصل على شهادة الباكلوريا في بداية الثمانينيات. كان شابا وطموحا ونبيها في مادة الرياضيات. حصل على إجازته بمدينة ليل الفرنسية وبعدها انتقل للدراسات العليا بمدينة لوزان السويسرية. تزوج مبكرا هناك سنة 1990، لكن ظروفا لم يشرحها كثيرا جعلته يفترق مع زوجته. حافظا على علاقة محترمة لهما وللولدين اللذين أصبحا الآن كبيرين وراشدين وقد تجاوزا سن العشرين. سمير في 24 سنة من عمره وعمر في 21 سنة.
اختار السيد غودان مسارا جديدا في حياته بعد أن تقاعد مبكرا من عمله هناك. بدأ ذلك بلقاءات ثقافية جمعته داخل جمعية ثقافية وجد في أنشطتها ما يلبي احتياجاته الوجدانية كما عبّر هو عن ذلك. أزمة هويّة وافتقار وجداني لما يسقي الروح. كلما جاء إلى المغرب شعر بعطش كبير لكي يتكلم بلغته الأمازيغية. بدأ في تعلم تيفيناغ ووجد بين خبرته في الرياضيات والدراسات اللسانية الحديثة ذلك المشترك في تقعيد اللغة وفق مشروع دراسة تشرف عليها الجمعية بشراكة مع المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية (الإيركام) كما يحب أن يناديه. كانت السيدة غيتة تتابعه بشغف. وبين حين وآخر كان السيد غودان يتعرف على هذه العائلة وسيرورة حياتها.

فتحت السيدة غيتة في غفلة عن الاثنين، اللذين تأخرا في الخطو، تأملا وتعرفا وفجّرت معهما بعض آلامها

الشخصية. لمست في السيد غودان براءة استقبال لحكيِها وصدرا يخفّف ثقل همومها:
ـ في الحقيقة، أرى أنه لا يمكن لسيدة أمازيغية شلحة أن تتزوج من غير رجل من ثقافتها ولغتها. صديقات لي جرّبن الزواج بغير أمازيغي شْلَحْ، وكان مصير زواجهن الفشل مثلي كذلك. تصوّر أنه حتى التنفس إذا تصاعد بأكثر من اللازم تتم محاسبتهن عليه. تشعرن بتضييق الخناق يوميا وكل حين. صديقة لي، كان يقع معها العكس. تزوجت برجل من الشمال الغربي، لا يهتم بها أو يسألها أو يُبالي لأي شيء. لتفعل ما تريد. لا يهمّه الأمر. غائبة عن اهتماماته وانشغالاته كأنها شيء يؤثث حياته فقط.
يتابع السيد غودان حكيَها ويلمس جراحه المنغرسة في صوتها الذي يكاد يغيب برقة بكائية حزينة. يتسلّح بالصمت المنتبه والمتعاطف معها وهي تتكلم من جديد:
ـ تعلم سيد غودان. ذلك المثلث الموجود كرمز في زربيتنا الأمازيغية. يمثل التلاشي والبعد، يكبُر ويكبُر في الرسم. أرى نفسيتي مثل أولئك الرُحَّل من قبيلتي الذين يعيشون في انتماء هويّة للغابة والماء. حينما تذهب لضاية إفراح لا تلاحظ تواجدهم بينما هم هناك يقاومون الظروف القاسية والتهميش. تصوّر أن منهم من لم يرَ الملك يوما ولو في تلفاز. لا يعرفون شكله. يعني أنه لا تلفاز ولا تواصل مع العالم الخارجي. ربما اليوم تغيّر الوضع. لكن ما أعرفه منذ أكثر من عقدين هو هذا. أووووه... ماذا أقول لك؟ حياتي وظروفي ومعاناتي مثل ذلك المثلث. أشعر

بالتلاشي والبعد عن الذات بدرجات متزايدة. لم يعد لي أمل في الحياة ولا رغبة سوى من أجل عثمان ابني.

يغير السيد غودان بذكائه مجرى الحوار لكي يكون موضوعيا، ينسي هذا التفجّر:
ـ إرقزان، تعني دلالة الرسوم. كلنا يعلم أن الثقافة الأمازيغية تتحدث كثيرا عن ثقافة الفقدان والحزن. حين الموت تتحول المرأة إلى شاعرة بامتياز، صارخة ومعبّرة عن المعاناة، عن النهاية. وكما تعلمين، فالوشم ارتبط كلغة بحياة الترحال كذلك. إرْحّال. الوشم الذي أريتني إياه، فعلا فيه عقدة وانفتاح. انغلاق وانشراح. ضيق وشدة. حياة الترحال مرتبطة بالماء. (رزم) حين يجدون الماء. يكون الانفراج. (قن) حين غيابه. الجفاف. يكون معه انغلاق. ولعل أكبر شعب يقدس الماء بشكل كبير هو الشعب الأمازيغي.
ـ صحيح. ألمس الاحتفالات الكبيرة التي تكون حين قدوم فصل الربيع أو حين الاستقرار بمنبع ماء صافٍ وجارٍ. في الحقيقة أرى أن الثقافة الأمازيغية اليوم أصبحت مجرد أكسيسوار في الحقل الإعلامي والسياسي.
ـ أنا أرى العكس. يعلّق معترضا السيد غودان. فيما مضى، كان توظيفها بشكل فولكلوري وكأكسيسوار كما عبّرتِ عن ذلك. اليوم هناك وعي حقوقي. هناك مشروع لإعادة الاعتبار وإرجاع كرامة. لا يمكن أن نحقق كل شيء مرة واحدة. تهميش قرون نحتاج معه إلى عقود من أجل إعادة

الاعتبار والقيمة، لشيء مرتبط بحياة ثقافة وجريانها جريان النهر في الوادي. إنما قولي لي: أمَا تزال العائلة هناك بضاية إفراح؟
ـ بعض أبناء عمومة وأبناء أخوة. قد يحضرون خلال السوق الأسبوعي هنا بإيموزار. قد نلتقي بهم في إفران. وإذا زُرْنا ضاية إفراح خلال الربيع والصيف نلتقي بهم.
ـ إن شاء الله سأقوم بزيارة مناطقهم.
ـ في هذا الجو وهذه الثلوج؟
ـ أكيد. أريد أن أتابع الاستعمال اللغوي المعتمد في فصل الشتاء على الخصوص. النطق والتوظيف، والحاضر منه على الخصوص.
ـ مهمة صعبة عندكم في هذا البحث اللساني واللغوي.
ـ هناك عشق مثل العبادة. أمارسه بشغف كبير. وتحقيقه سعادة خاصة طبعا. إنما ماذا عن عثمان؟ ألا يتعلّم اللغة الأمازيغية؟
ـ في الحقيقة لم تسمح له الظروف بتعلمها. لنسأله عن رغبته في ذلك.

الغريب والمفاجئ لجماعة الكبار حين سؤالهم عثمان عن موضوع تعلم اللغة الأمازيغية كان هو جوابه المباشر والواضح تجاه ما سئل عنه:
ـ وما فائدة تعلمها بعد الباكلوريا؟ لا هي ولا اللغة العربية. هل ستنفعاني في الدراسة العليا؟ يكفيني تعلم اللغة الفرنسية

والإنجليزية. ربما أتعلم اللغة الألمانية إذا رأيت حاجتي لها للدراسة هناك بألمانيا.
نظرت أمه غيتة مستغربة لجوابه، وحوّلت نظرها للسيد غودان علّه يمتلك جوابا لما سمع. أمّا عيشة فقد بقيت خارج التغطية، لا تدري أي سياق هو للسؤال أو للجواب. حاول السيد غودان إضافة ما يملأ به فراغ السؤال ربما، وفراغ الجواب كذلك:
ـ لقد سبقتك للديار الأوربية وأعلم حاجتك لتعلم لغاتها من أجل الدراسة. أنا كذلك كانت عندي نفس الفكرة، لكنني الآن أحتاج إلى العودة إلى لغتي الأم. ربما كوني نشأت متقِنا للغة الأمازيغية، فذلك لا يُشكّل عندي أي عرقلة في النطق. أما أنت فحاجتك لها ستكون لكونها لغة أسرتك وأمك وخالتك وبلدك. لكنك على صواب إلى حدود اللحظة الحاضرة. في المستقبل، تذكّر بأنك مغربي، وبأنك أمازيغي ولغة أهلك القديمة والعريقة هي الأمازيغية. ستحتاج إلى أصل تتشبث به كجذع شجرة تتمسّك بها من الرياح العاصفة. لن تكون هذه الرياح سوى هذه التنافسيات الثقافية واللغوية التي تتجاذب الإنسان الفرد، والعالم كجماعات بشرية.
بدا على عثمان بعض الفهم من بعض الغموض. البتاس في إدراك هذا الحديث عن التنافسيات الثقافية واللغوية. استدركت أمه غيتة الاستمرار في الحوار حول الموضوع وردًّا على رأي السيد غودان:

ـ ولماذا يجب علينا انتظار المستقبل؟ ماذا لو ابتعد بالمرة عنها؟ تسأل السيدة غيتة وقد بدا الاحمرار على خدّيْها وشعرت معه بأنها تجتث من جذورها. ربما لأول مرة منذ مدة لم تكن لها قضية للدفاع عنها إلى جانب وجود ولدها معها مثل ما لها اليوم من شعور بأن انتماءها ولغتها مهددة وتحتاج إلى تعلّق بها وحب وتعلم. لم ترفض يوما ثقافة أخرى، ولم تقم بإقصائها. لكنها لا تريد إقصاء لغتها وثقافتها. هذا كل ما في الأمر. هذا ما حاولت أن تجيب به وتدافع به عن رأيها.
كان عثمان متأملا لهذا الاهتمام برأيه وجوابه.
ـ أردتم جوابا أعطيتكم إياه. ليس لديّ الوقت لأشتغل بشيء جديد إلى جانب الدراسة.
ـ المشكل هو غيابها عن سلك التدريس. ينبّه السيد غودان السيدة غيتة.

أن تكون الجلسةُ التي قاربت في توقيتها الساعة الرابعة مشتعلةً بحرارة المدفأة الكبيرة المشتعلة بحطب الأشجار الكبيرة. أكيد أنها رافقت مناقشة متقدة عند السيد غودان والسيدة غيتة. كؤوس الشاي زادت انتعاشا وتذوقا لجمالية الجلسة واللحظة والتجمع. سيكون عليهم أن يعودوا بعد نصف ساعة حتى يستعد الكل لغسق ومساءات إيموزار.
عيشة التي جلست بنضارة وجهها وقسماته الرقيقة وقامتها الجامحة، كان الوشم يسِم شخصيتها الأمازيغية، وكانت إيقاعات الموسيقى المنبعثة من قرص يتضمن قسمات لآلة

الوترة، كلها زيّنت لها احتفالا ثقافيا جعلها المنتصرة صمتا لموضوع الأمازيغية ثقافة ولغة غرّد صوتها في نبرة فرح داخلي يترجمه غناؤها الهامس مع هذه الألحان الوترية. تضمن رنينها سحر جبال الأطلس وعمق تاريخ فؤادها. تبين للسيد غودان أنه صوت يمتلك من القدرات في الإنشاد كما في النداء الغنائي بتاماويات ما يسقي العطشان لرحيق الغابات بين قمم أطلسية مليئة بالحياة وبالإرواء. انتقل معها السيد غودان للحديث باللغة الأمازيغية، بينما أخذ عثمان يتابع شاشة التلفزة التي تنقل إحدى المباريات الرياضية في كرة القدم بدون صوت. لفت انتباه السيدة غيتة وجود مجلة قديمة فوق منضدة بجانب المدفأة، أخذتها وغرقت في تصفحها. حين العودة إلى مركز المدينة والشارع المؤدي إلى زنقة سكنى العائلة، افترق عثمان بعناق مع السيد غودان. تبادلا تحية أمازيغية بامتياز ووعدا باللقاء يوم غد في الصباح.

ـ لا أفهم. وربما لا أريد أن أفهم. في بعض الأحيان، تختلط عليّ الأمور فلا أجد لها منطقا يفسرها.
هكذا ردّت الأستاذة غيتة على سؤال صديقتها صفاء.
مرت خمسة أسابيع على وفاة المشمول برحمة الله تعالى السيد عبد النبي داكور. ستقام أربعينيته هذا المساء. كان ردّ السيدة غيتة موافقة وتأكيدا على الحضور، وكان جردا للأحداث التي وقعت خلال هذه الأسابيع الخمسة. أحداث متزاحمة لم تترك للعقل متسعا للفهم والاستيعاب:

الموت الذي خطف زوج الأستاذة صفاء. العاصفة التي كادت أن تودي بعقل عثمان. زواج السيد غودان من أخت الأستاذة غيتة، عيشة يتماس ! الاتصال الهاتفي الذي تلقتْه من زوجة زوجها السابق وطليقها الحالي وأب ولدها عثمان. ما هذا التسارع في الأحداث؟ ما موقع غيتة داخله؟ بين الوجود والعدم، الاحتفال والحزن، الفرح والقرح، الغيض واللامبالاة، ما هذا التيه الداخلي الذي امتلك نفسية السيدة غيتة؟

أسئلة وحيرة لخّصتْها المكالمة التي أجرتها مع صديقتها صفاء. لم تكفِهما لقاءات العمل داخل المؤسسة لتبيان تفاصيل كل شيء. كل مرة تؤجلان الحديث في شتى أمور. نفسياتهما غير مستعدة لهذا التفرغ الثنائي الذي يؤسس لعلاقة صداقة منشورة فوق حبل غسيل بركان هذا العالم. تعملان على المحافظة على بللها المنعش ورطوبتها المحافظة على حيويتها داخل جحيم الجفاف الذي يغمر مناخ الحياة.

ـ وكأنني المسؤولة عما وقع وسيقع. تتصل بي، أولا لتعتذر لي عما صدَر منها فيما سبق. يوم تجرأت على مكالمتي في الهاتف وتعييري وتشنيعي واحتقار أنثويتي انتصارا لذاتها في ظفرها برجولة شخص لم أكن أستحقه في نظرها. جعلت لي لحظتها محاكمة وجودية وكأنني مجرمة حرب اقتيدت لمحكمة لاهاي. وتنتقل إلى تفجير معاناتها في تجربتها معه. كيف قررت اللجوء إلى طلب الطلاق من طليقي السابق. وكأنها تستنجد بي لكي أعطيَها

القوة أو المفاتيح أو شرعية الخطوة التي تريد القيام بها حين اتصلت بي في شهر شتنبر الماضي واعتذرت عما صدر منها أول مرة. كان اتصالها الجديد إعلانا بنتيجة سبق لها أن بدأت مباراتها فيما سبق.
ـ وبِمَ أجبتِها؟
ـ لم أتذكر الكلمات يا صفاء. كانت قليلة ومختصرة. كنت أخاف من مواجع الاستحضار للتفاصيل الماضية أو الخوض في معاناتها السابقة. قلت لها فيما تفكرتُه: لقد اتخذتِ القرار الذي سترتاحين له. اكتفيتُ بهذا الجواب واعتذرتُ. برّرت لها انسحابي من المكالمة بطلب من طرف عثمان ابني في خدمة منزلية مستعجلة.
لم تكنْ عيشة حاضرة يوم هذه المكالمة ولا قبلها بمدينة مكناس. ما روته عيشة هي الأخرى من تفاصيل طلب السيد غودان ليدها وللزواج بها، لم يكن كافيا ليجعل السيدة غيتة تفهم ما يجري. كما لن تعترض على الفكرة. السيد غودان مطلق، وأختها عيشة راشدة بما فيه الكفاية لكي تختار وتحدد ما تراه من مصلحتها. إنما كيف وقع كل هذا؟ يبقى عقل الأنثى المحب للتفصيل المنطقي للأمور حائرا هنا.

يعتبر نفسه من جيل قديم جديد. لا يشرح شيئا لمن يلتقي بهم كفاية حتى يستطيع المرء فهم شخصيته واختياراته. أصعب ما في الإنسان خبايا نفسيته. هكذا كان يستنتج بغرابة مواقفه التي تصدر منه. لا يدرك صراحة المنحى الذي ستقوده إليه أفكاره ومشاعره. يتفرغّ لحديثه

بالأمازيغية. يريد أن يملأ به جل وقته الذي يقضيه في حواراته اليومية. فبالإضافة إلى بحثه الذي تطوع به، مازجا بين نسقيات الدراسات الرياضية ونسقيات الدراسات اللسانية، والتي وجد فيها مدخلا لروحه وذاكرته ومن خلالها مدخلا لثقافة أمته التي ينتمي إليها لغة وتاريخا ووجدانا، كانت حياته الشخصية تعنيه أكثر داخل هذه الاختيارات. هذا ما لمسه فجأة في تفسيره لسبب اقتراحه الزواج على عيشة يتماس أخت الأستاذة غيتة:

ـ أرى فيك طهارة كاملة. أولا أجد الحوار معك مثل نهر جارٍ ومتلألئ. شخصيتك ولهجتك في النطق باللغة الأمازيغية، مزيج من إيقاع مديني وأصالة نشيد الجبال الصادر من عمق البحيرات. نفسيتك صافية وخالية من عقد الحياة التي تُكبّل جلّ الناس. وأسعد ما يسعد الناس هو أن يجدوا من يخرجهم من ماضيهم ويعيشوا معهم لحظات حاضر مستقلة وجميلة. هذه اللقاءات التي تمت بيننا يا عيشة كانت كافية بعفويتها لكي أستكشف كل هذا وأطلبك للزواج.

ـ وماضي الإنسان؟ سيد غودان. لقد كبرت هنا في ظروف قاسية واستغلال لم ينقذني منه سوى أختي غيتة. قد تسأل عني البعض فيذكروك بهذا الماضي.

ـ ماذا سيكون قد تضمن يا عيشة؟

ـ إنه ماضي استغلال جنسي. كنت طفلة وفجأة تم اغتصابي وطردي من رعاية أسرة وخدمتها. وفجأة احتضنني عرّاب خدعني بالحماية فرماني في الجحيم.

والواحدة منا، ربما حتى الرجال، إذا فتِحت أمامها طريق في مرحلة الصغر والشباب، اعتبرتها طريقا مشروعة ومقبولة، ما دامت بشروط مواجهة لظروف الحياة.
ـ لا تستمري في هذا الكلام. لا أحتاج إلى معرفة تفاصيل. وهل تعلمين من أنا؟ هذا الجالس أمامك؟ كيف لك أن تقبلي الزواج مني إذا علمت حقيقة حياتي؟ لكن من حقك معرفة من هو السيد غودان:
أنا ابن الجِراح يا عيشة. أمّي طليقة أبٍ اختار تلبية نزواته وإهمال واجباته الأسرية. كبُرت في مؤسسة خيرية. كان نبوغي في الدراسة عاملا مساعدا على اختياري حين الحصول على شهادة البكالوريا لكي أتابع الدراسة بفرنسا. كنت الأول في المؤسسة والإقليم وحتى على صعيد المغرب، في المواد العلمية. كدت أُحرَم من فرصة فرنسا لولا تدخل أستاذ غيور على قيمه الوطنية. أتذكر يوم أراد أحدهم نزع ملف المنحة من يدي بعدما سلّمني إياه الحارس العام. كيف تدخّل صارخا ومعاتبا ومهدّدا بالمتابعة والمقاضاة لذلك الشخص.لم أفهم تفاصيل المسألة، إنما استشعرت تناقضات المشاعر وتهديداتها لذاتي ومصلحتي. توفيت أمّي وأنا في سنتي الثالثة من الدراسة هناك بمدينة ليل الفرنسية. لم أحضر لجنازتها. أجّلت ذلك الحضور لعطلة الصيف التي بقيت فيها لأسبوعين فقط ترحمًا وتذكرًا ومرافعة يومية لمشاعر حبّي لأمي التي أنجبتني وأرادتني أن أكون غودان الآخر الذي يسافر ويكتشف ويبني حياته الجديدة بعيدا.

كانت توصيتها لي دائما ألا ألتفت إلى الوراء. ألا أبحث إلا عن ناس جدد وحياة جديدة. وحين كبُرت كفاية فهمت لماذا. كانت أمي مضطرة في استغلال داخل المجتمع وضعف شخصي وفقر مادي لكي تبيع جسدها. وكانت نظرة الناس احتقارية لكل مطلقة وفقيرة. يرسمون قدر الفرد ويجعلونه بما يخدم مصالحهم وشهواتهم. إيموزار ليست مدينتي الأصلية. لكنها امتداد لذلك الجرح. ربما ورثت هذا الصوت من هذه النفسية ومن تاريخها. الآن، الحمد لله (ايحشلف)، الجرح التأم وامتثل للشفاء. إنني أدرك ما يمكن أن يكون جرحا. لكن ما يعجبني فيك هو أنك تعيشين متعالية عليه. سليمة نفسيا. أنا كذلك تعاليت عليه. إنما، لابد لي أن أتصالح مع تاريخ ذاتي وشخصيتي وهويتي. لا أفكر في انتقام ولا في محاسبة. لا.
أريد أن أسقي قبر أمي وروحها بجمال سعادة أغرسها. في عينيك الكستنائيتين أرى بحيرة فرح. أضحك بسعادة طفل حينما تقولين لي إنني من ضاية إفراح. تلتحم الطبيعة في نظرتك مع الحياة المرغوبة.
ـ هذا هو غودان أمامك. لست ملاكا، ولست راغبا سوى في حياة بسيطة وعادية. شرطها سقاية روح وعيشة مع عيشة.
...
لم تجد عيشة من كلمات تردّ بها على اقتراحه. كانت عباراته قوية عليها. لغة ثقافية وتشبيه كبير أحسّت بقيمته. خصوصا وأنه يخاطبها بلغتها الأمازيغية. يعزف على

وتر أحاسيسها. خصوصا وأن صوته الأخّاذ بغلظته المذبوحة بهديل طفولة رقيقة يسحر المستمع إليه، وخصوصا إذا كان الموقف مثل هذا، يدعو امرأة إلى قبول عرض زواج.
عيشة وقد قاربت السابعة والأربعين من عمرها. لم تجد ما تعترض به على اقتراح السيد غودان. طلبت مشورة أختها في الهاتف. اندهشت هذه الأخيرة وتفاجأت طبعا. لكنه اندهاش مماثل لما عرفته عيشة هي الأخرى. هكذا أكدت لها الموقف. وما من عيب في قبول زواج. سنة الله والطبيعة وقدر المرأة والرجل. هكذا استرسل كلام غيتة وهي تداري ذهنها موازاة مع حوارها عبر الهاتف أولا مع عيشة، وبعدها في تحليل متعاقب للأحداث والأمور مع ذاتها.
يتدخّل حضور السيدة صفاء في الاستشارة وفي المتابعة والتعقيب والإضافة. رغم مرحلة الحزن التي تمر منها لا تجد بدّا من الانخراط في جزء الحياة الذي تبقى لها كحق وكعلاقات تتنفس بها في يوميّ معيشها.
ـ هذه سنة الحياة يا غيتة. تحضرني عبارات المواساة في جنازة وفي تعزية وفاة المرحوم: لله ما أعطى ولله ما أخذ. قدرنا مع الحياة والموت أن نقبل ما أعطانا الله تعالى، وأن نقبل ما أخذ منا. سنة الحياة.
تتقبّل السيدة غيتة مثل هذا الرأي وتجده عادلا من جهة ما تنتظره عيشة من تأكيد على اختيارها. فالسيد غودان رجل متقاعد، يريد الاستقرار في عيش مغربي وعش أمازيغي

يسقي به فؤاد روحه. مستقر ماديا وليس بطمّاع مثل الآخرين.لمَ لا؟ !

ما يبدو هادئا بالنهار، يتحوّل ليلا إلى لجّة صامتة. ليتها تصرخ معها، لكانت قد فجّرتْ وفرّغت ذلك التيار المنفلت داخل بحر نفسيتها. تكاد تتقيأ، فلا تجد سوى ذلك الفراغ الساخر من جسدها. قد لا تعترف بجسدها. على الأقل أمام المرآة، فإنها لم تتذكر متى احتفلت به آخر مرة. متى راقصته؟ متى عشقته عاريا؟

اللعنة على المرآة. تندهش لكونها محارَبة داخل غرفتها. ما تواجد منها، واحدة مخبأة بشكل مستطيل ومعتم خلف البوابة الوسطى للدولاب، الثانية مربعة على قياس منضدة زينة بأربعة أدراج. بقيت متشظية في تعلقها بالإطار الماسك لأطرافها من السقوط ومزيد انكسار. ترى فيها نفسيتها المتماسكة بخيط دخان وأمل سراب. عالقة بين الوهم والألم.

اللعنة على المرايا. خائنة حتى في الغياب. أرادت منها أن تكشف عري الجميع، أن تفضح خداع الكذابين والغشاشين والمنافقين. اللعنة عليها. هي كذلك تزوجت بألف قناع. نشرته غسيلا ملطّخا في الشوارع. جعلتْه لطخا مرقطا يحسبه الناظر زينة وهو وسخ ممسوخ.

اللعنة على المرايا، يوم تحضر هي، ستغيب غيتة. هكذا استشعرت التحدي معها. حين سهادها، تعلمُ أنه أرق خاص بها. تنفرد في العوم داخل مسحوقه المبتل بعينيها المفتوحتين في العتمة. قد تنقذ نفسها بمصابيح خافتة منبعثة من جانب السرير. لكنها تعلم أنه سهاد لها وحدها. ها هو عثمان وقد غاص في نومته بغرفته. يسبح في أحلامه الطفولية والشبابية. يجعل صورا كبيرة على الجدران ومرايا أربعة تتخلّلها. كأنه يتحدى بحدسه ذلك الحرمان الذي تسبّبت فيه أمه من نعمة المرايا.

يطلّ عقلها الواعي والمخالف لمنطقها بمنطق آخر:

فعلا للمرايا مزايا كثيرة. قد لا تعلمينها، أو لنقلْ إنك تتجاهلينها. تشظيها يجعلك تنشطرين نفسيا وداخليا. تدخلين في تحدٍّ وهمي لما لا يناسبك صراعا. تحاربين تلك الطاحونة من السراب التي قراتها في الأدب. وحتى كلمة أدب تسخر منك. لم يكن الأدب كمالا أخلاقيا، ولم يعدْ كذلك. أصبح كما كان صياغة حرفية وظاهرية متظاهرة بالكمال.

تشعر غيتة بسخرية هذا العقل الواعي من نفسيتها. استغلاله لتعبها لكي يخترق أرقها ويثقب عينيها في عز

العتمة أو بصيص نور لكي ينخر خواءها و فراغها، يراقص ظلها الغائب عنها حزنا على حالها.

ـ العالم كله نقص يا غيتة، وليس أنت فقط. البصر يمتلك نقطة عمى. الغلاف الجوي يمتلك ثقب أوزونه المتمطط. الكون يمتلك ثقوبه السوداء. ثوب الحياة يخترقه ثقب الموت فيعود الثقب ممتدا كقاعدة تحصد ما نسجناه في الحياة. وأنت تعاندين. تريدين كمالا مستحيلا. فرحا بدون ألم. تحتجين على كل وقع أو حدث وترغبين في إعادة صياغته بتقديرك ومقاس ذاتك. أيهما القدر؟ العالم أم ذاتك؟

تفكر في شعاب الجن التي تمتلك الفرد فتجعله فاقد الإرادة. لكنها تفكر في منطق الثقافة المجتمعية التي تحكم على هذه الحالة بالجنون. تسمع ضحكات الليل والظلام. تفهم بأنها تسخر منها. تلمس فعلا ذلك الجنون الذي يسبح في لون الحلكة التي غمرت بصرها. تزيد من درجة نور المصباح لكي يعمّ ضوؤه أكثر زوايا الغرفة وظلال أشيائها. يقتحم المشهدَ صوتُ صفاء، وغودان، وعيشة. تحاول غيتة أن تقيم حوارا صريحا تبوح فيه بكل حقيقة مشاعرها وأفكارها أمامهم. تريدهم ربما أن ينساقوا لمنطق تحليلها فتكون هي التي على حق في رأيها واقتراحها واختيارها.

لكنها تنخدع بانفلات تلك الأصوات ونطقها بما لم تحب سماعه ولا الوصول إليه كاستنتاج.

ـ لماذا ترفضين زواج عيشة من غودان؟

كان ذلك صوت صفاء الذي سمحت له بأن يكون السائل في جوف الظلام.

ـ ولماذا لم يخترنِ أنا؟ ألستُ من حاورتْه وناقشته؟ ألست من عزفت على وتر مطربٍ يستحضر اللغة الأمازيغية وثقافتها وينتصر لأمومتها التاريخية؟ ألست المثقفة والإطار الذي ينتج داخل المجتمع؟ أستاذة وحاملة لإجازة ولثقافة العصر وإمكانيات العيش...

ـ هكذا إذن ـ يخترق صوت عيشة مشهد الحوار ـ تريدينه زوجا لك. لكِ ذلك. إذا أراد هو لا مانع عندي. سأنزل من كرسي الزفاف لكي تجلسي أنت عليه. تعلمين أنك اختي العزيزة على قلبي، وأنك من أنقذني من جحيم حياة، وأنك من يعيلني فيها.

تُسْمَع قهقهات السيد غودان المفخمة. تبتسم عيناه أكثر من شفتيه. تناسب حركات يديه شكله المربوع فتكون لهما سلطة التعبير أكثر في استعمالهما. كان لباسه مزيّنا بصدرية مذهّبة. بدا أنه يمتلك سنّا أو نابا مغلّفا بالذهب.

لمَع في ظلمة الأرق فشعرت غيتة بضحكة خافتة تبادلتْها مع عيشة وصفاء.

تصرخ في وجهه:

ـ لماذا اخترتَ عيشة وليس أنا؟ ألست أكثر ثقافة منها؟ ألست المدافعة والمناضلة من أجل نفس الحقوق التي تشتغل عليها ميدانيا؟ أتمنى أن تجيبني بدون نفاق. فأنا أرى فيك أسد الأطلس الذي انقرضت حريته إلا من صوتك وحضورك وضحكتك كذلك.

ـ يا غيتة ! بما أنك ترين فيَ أسد الأطلس، فاعلمي أنني كذلك جئت من الثقافة إلى الطبيعة. إنني أبحث عن تخلّص من تشكيل تركَّب في دواخل شخصيتي. هل علِمتِ لماذا أنا رجل مطلّق الآن؟ هل علِمتِ لماذا لم أفكّر في الزواج منك أنت؟ أنا صوت الأطلس الذي ناداني كطفل في دواخل أعماقي. كلما كبُرت في ثقافة العالم ساءلني ببراءة: أين صوت أمومتي الأولى؟ كنت أؤجّل جوابه عن السؤال. حينما ابتعدت بنا السبل، أنا وجولييت، نعم، اسمها جولييت، زوجتي الفرنسية الأولى، اخترنا نحن الاثنين توافقا مناسبا لشخصيتنا الأسرية ومسؤوليتنا داخلها. وجدت جروحي الغابرة وقد تداوت بهذه العملية القيصرية الجديدة ثقافيا واجتماعيا. كيف ذلك؟ لا أعلم كثير تفاصيل التبيان لوقع ما وقع.

نعم. رجعت إلى جبال الأطلس. واعلمي أن امتدادي ليس بجغرافي. أنا أمازيغي مثلك. لكنني أنتمي لثقافة تاريخية

ممتدة في "خارطة العالم". أستطيع أن أكون ذلك الأمازيغي الأمريكي أو الليبي أو المغربي. نعم. أستطيع أن أكون ابن البحر الذي سيسكن قاربه وسيتعلق بعمود شراعه وسينظر جهة الريح التي تلفح صفحة وجهه. لماذا لم أنظر إلى الأفق؟ لا أفق لي غير الحياة بمعطياتها. لا جزيرة لي أنتظرها غير هذا الجسد الثقافي الذي يحملني وأحمله، وهذا الجسم المادي الذي يلبسني ويتحمّلني.

أنا يا غيتة، سمك السلمون الذي عاد لمنابع مياهه الصافية. عاد ليخلّد لروحه حوض جنتها الأولى. ربما سيتبرعم. لكنه يعلم مخاطر الذهاب والإياب بين النبع والمحيط الذي سيسبح فيه من جديد.

أما أنت يا غيتة، فلستُ مناسبا لك في الزواج. أنت فعلا مثقفة كما قلتِ. لكنك مشكّلَة بعقد ثقافة وتجارب تسقطينها على تفاعلات علاقاتك. أما عيشة، فهي الفطرة التي تضمد جراحها وتقوم من جديد بلا أثر. لا تهمها مشاكل العالم. مشاكلها طبيعية وفطرية. هكذا أريد أن أعيش ما تبقى لي من حياة. المشكل ليس فيك و لا فيَّ أنا. المشكل في اختلاف اختياراتنا ووضعياتنا. يمكننا أن نقول بلغة الغرب البسيطة:

ـ لم نتناسب !

انتهى الكلام يا غيتة. انتهى الكلام.

تتدخل صفاء في مشهد الحوار. تأخذ صورة لامعة وفضية داخل عتمة الليل و خيال غيتة وأرقها. ستخترق حواريتها بعد مرور بعض دقائق أزعج هدوءها الليلي والسديمي صوت دراجة نارية مرت بدويّها المقلق لراحة وسكون الليل والناس نيام، إلا غيتة، فليست بنائمة.

تستسمح في الكلام. تحاول أن تكون لبقة. صوتها مجروح بأنين فقدان وبريق جسدها الفضي يتموّج داخل بياض. سمحت غيتة لنفسها بتخليل المشهد بتفسيره ببياض الحداد وعدة وفاة زوجها المرحوم عبد النبي داكور:

ـ يجب أن تعذروا غيتة. فهي صديقتي ومن واجبي أن أدافع عنها وأبرر سلوكها ورأيها. لكنني قبل ذلك سأقوم بانتقادها وجها لوجه. أرى أنك سادية في موقفك. جراحك و قد أردتِ أن يعيشها الجميع. اختياراتهم وقد وددت أن تمرّ عبر قرارك في السماح لها من عدمه. وكأن الناس عليهم أن يعيشوا في معاناتك لكي تشعري بالراحة والسكون. لا. أنت على خطإ يا غيتة. تجربتك ليست هي تجربة الآخرين، وحياتهم ليست هي حياتك. جربي حياة أخرى يومية. عادات جديدة.

تعلمين يوم جلسنا مع ذلك الشاعر بعد أن طلبتِ مشورته في كتاباتك الشعرية. تتذكرين كيف لاحظ على نصوصك وعلى طريقة قراءتك؟ وكيف رفضت طريقته ورأيه

واعتبرته متعجرفا وواهما. كان الشاعر على صواب. نصوصك كانت سطحية ولم تصِل إلى عمق الشعرية المطلوبة في قصيدة النثر. كتابة تقريرية تشبه مرافعة منسوجة بمقفى الكلام. هكذا قال لكِ. صوتك مذبوح كطائر جريح يحتضر فيتحول تغريده الأخير إلى سمفونية نداء للموت والنفس النهائي. وما تزال تلك النبرة المتقطعة في أوتار صوتك دالة على ذلك.

أعجبني كثيرا ذلك التمرين الذي خضعنا له. حينما دعانا إلى تجربة كتابة نقيض مضمون بعض النصوص التي قرأتها علينا في جلسة مقهى les quatres oliviers. كيف تغلّب علينا في عكس مشاعرنا و فضح سجن كتابتنا لها. يومها ضحكت كثيرا وتصوّرتُك في مشهده الذي اختاره. يومها علِمتُ جنون الشعر والشعراء. أو تعلمين؟ يومها أصبحتُ شاعرة أنا كذلك. ربما لم تُجربي ما دعانا له. لكنني جربتُه في عزلتي داخل غرفة النوم. ولكلٍّ عزلته طبعا.

أضحك لردة فعلك حينما قلتِ له: لا أستطيع. ولماذا لا تستطيعين؟

طلب منك الوقوف أمام المرآة، بعد استحمام ناعم. البقاء عارية الجسم أمامها. الرقص بالجسم و التموج مع موسيقى ومعانقة الصورة بعشقها والرغبة فيها. تخيّلتُه هو من يراقصك حدّ المضاجعة وقوفا. رأيتُ احمرار وجنتيْك. وأنا الخبيرة بأنفاسك. اشتهيتِ الصورة، لكنك سارعتِ إلى

عنف الرد. كنتِ كاذبة حينها. لماذا ترفضين مثل هذا الطلب؟ لماذا لا تكونين أنت ساندريلا التي ستراقص فارس أحلامها ضدًّا على التحالفات المحبوكة؟تحرّري يا غيتة. أنتِ مكبّلة بثقافة وعقد نفسية.

هذه صديقتي. عارية أمامكم. ميزتها أنها ليست بكاذبة ولا ماكرة ولا مخادعة. عيبُها أنها مازوشية تستلذ بتعذيب ذاتها. ربما اعترضت أو خالفت فقط اقتراح زواج عيشة بالسيد غودان لأنها رأت نفسها جزءا من أختِها. بما أنها تشاركها تاريخ معاناة و آلام تجارب حياة. كل واحدة منهما تكمّل الآخر. وقد كانت سادية في اعتراضها. لكنها معذورة في ذلك. هذه طبيعة بشريتنا. لماذا لا ترى تحرر ذاتها إلا في ارتباط مع الآخرين؟ هذا ما ينقصها.

1

[1] حسن إمامي

الكاتب حسن إمامي المغرب

بعض إصداراته الروائية: ديلار.. شرفة الريح – أقفاص – بحيرة العشق اللازوردي – شجرات وخرائط...